الفصل الرابع:

تقويم مباحث الإعجاز البلاغي في كتب دلائل النبوة

المبحث الأول: الكثرة والقلة.

المبحث الثاني: الأصالة والتقليد.

المبحث الثالث: العمق والسطحية.

المبحث الرابع: شبهات دعوى أن القرآن ليس معجزاً ببلاغته وردها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

توطئة :

تحتاج قضايا الإعجاز البلاغي السابقة عند علماء كتب دلائل النبوة إلى وقفة لتقويم الجهد الذي بذلوه في تلك القضايا، فمن المؤكَّد أن ثمة ملامح عامة يلمحها الباحث، ككثرة قضايا الإعجـــاز البلاغي أو قِلَّتها لدى علماء كتب دلائل النبوة، كما أنه من الضروري معرفة الرأي الجديد الذي لم يُطرق من قبل، والرأي القديم الذي استفادوا فيه من سابقيهم، كما ينبغي تحديد نوع هذه الاستفادة، فأيُّ المصادر استفادوا منها؟ وما قدْر استفادتهم منهـــا؟ وما مدى العمق أو السطحية في دراستهم لقضايا الإعجاز البلاغي وعرضهم لها؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول : الكثرة والقلة

نال الحديث عن قضايا الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم نصيباً وافراً عند علماء كتب دلائل النبوة، فشرعت أقلامهم تُسطِّر إعجابها بهذا الكتاب العظيم، وتحاول فهم سرّ إعجازه.

وفي هذا المبحث سأتحدث عن قضايا الإعجاز البلاغي من حيث كثرتها وقلتها لدى العلماء الذين تحدثوا عن الإعجاز البلاغي في كتب دلائل النبوة، ثم تباين هؤلاء العلماء في عرضهم لتلك القضايا، ثم على مستوى كل كتاب حدة.

هذا وقد سبق الحديث عن عرض هؤلاء العلماء لكل قضايا الإعجاز التي تناولها العلماء في كتب الإعجاز البلاغي(١)، فلقد وجد علماء كتب دلائل النبوة ـــ عندما أرادوا الحديث عن معجزة القرآن ـــ بُغيتهم في كتاب الله تعالى، الذي لا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، فأقبلوا على بيان إعجازه البلاغي، ومن ثم تفصيل القول في المطالبة بالإتيان بمثل القرآن، والحديث عن معارضة العرب للقرآن، ومن ثم الإشارة إلى قضية التفاضل البلاغي بين الآيات القرآنية، والحديث عن النظم.

ومن هنا أستطيع القول بأن علماء كتب دلائل النبوة قد بذلوا جهداً كبيراً في بيان إعجاز القرآن، وأن كتبهم قد شملت قضايا الإعجاز البلاغي بمختلف قضاياه، مع أن كتبهم في أصل وضعها كانت للحديث عن دلائل نبوة النبي ﷺ .

ومع أن هؤلاء العلماء قد تناولوا كل قضايا الإعجاز البلاغي، إلا أنهم قد تباينوا وتفاوتوا في ذكرهم لها، فمنهم المكثر، ومنهم المقلّ:

وهذا تفصيل للقضايا التي تحدث عنها كل عالم على حدة(٢):

---

(١) ينظر : ص ٢٥٩ ـــ ٢٦٠ .

(٢) سيكون ترتيب العلماء حسب كثرة تناولهم لقضايا الإعجاز.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ ــ الزيدي: وقد أشار إلى جميع قضايا الإعجاز، مبتدئاً ومختتماً بوجوه الإعجاز(١)، ثم فصَّل القول في الوجه الذي ارتضاه ــ وهو الإعجاز بالنظم ــ بالقضايا التالية:

التحدي(٢)، والمعارضة(٣)، والتفاضل بين الآيات في البلاغة(٤)، والنظم(٥).

وبذلك يكون الزيدي قد شمل قضايا الإعجاز جميعها، بل إن هذه القضايا قد استغرقت جُلَّ كتابه واستحوذت على معظم صفحاته، وإذا نظرنا إلى كلام الزيدي عن وجه الإعجاز البلاغي نلحظ أنه جاء تمهيداً لقضايا الإعجاز الأخرى ومقدمة لها، وعلى الرغم من هذا إلا أن تناول الزيدي لقضايا الإعجاز لم يكن متساوياً من ناحية الكمّ، فحين نراه يتناول المعارضة في أكثر من خمسين صفحة، نراه يوجز كثيراً في تناوله لقضية التفاضل بين الآيات في البلاغة، حيث لم يتجاوز في الإشارة إليها صفحة واحدة، وفي كل حال فحديثه عن الإعجاز البلاغي لم يخل من نظرات نقدية لما يحتاج إلى نقد.

٢ ــ الماوردي: وقد أشار كذلك إلى جميع قضايا الإعجاز، مبتدئاً ومختتماً بوجوه الإعجاز(٦)، ثم فصَّل القول في أثناء هذه الوجوه عن القضايا التالية:

التحدي(٧)، والمعارضة(٨)، والتفاضل بين الآيات في البلاغة(٩)، والنظم(١٠).

---

(١) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٩ ــ ١٣٧ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ٢١ ــ ٣٢ . وينظر البحث ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) ينظر : المصدر السابق : ٣٣ ــ ٨٥ . وينظر البحث ص ٨٦ ــ ٨٨ ، ١٠٧ ــ ١١١ .

(٤) ينظر : المصدر السابق : ٩٨ ــ ١٠٠ . وينظر البحث ص ١٥٦ ــ ١٥٧ .

(٥) ينظر : المصدر السابق : ٨٦ ــ ٩٣ . وينظر البحث ص ٥٤ ــ ٥٥ .

(٦) ينظر : أعلام النبوة : ١٢٧ ــ ١٥٣ .

(٧) ينظر : المصدر السابق : ١٤٩ ــ ١٥٠ ، ١٥٣ ــ ١٥٥ . وينظر البحث ص ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٧٩ .

(٨) ينظر : المصدر السابق : ١٤٩ ــ ١٥٢ . وينظر البحث ص ٩٠ ، ١١١ ــ ١١٢ .

(٩) ينظر : المصدر السابق : ١٢٩ ــ ١٣٠ . وينظر البحث ص ١٥٨ ــ ١٥٩ .

(١٠) ينظر : المصدر السابق : ١٢٧ ــ ١٢٨ . وينظر البحث ص ٥٥ ــ ٥٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والماوردي بهذا الصنيع يكون قد شارك الزيدي في تناوله لجميع قضايا الإعجاز البلاغي وإحاطته بها، ولذلك فلا غرو أن نجد هذه القضايا قد استحوذت على جزء لا بأس به من كتابه.

٣ ــ اتفق الجاحظ، والباقلاني، والبيهقي، في ذكر أربع قضايا هي:

وجوه الإعجاز(١)، والتحدي(٢)، والمعارضة(٣)، والنظم(٤).

وعلى الرغم من اتفاقهم في ذكر هذه القضايا إلا أن تناولهم لها من ناحية القلة والكثرة جاء مختلفاً اختلافاً يسيراً، فبينما نجد الباقلاني يتحدث عن هذه القضايا الأربع بما مجموعه خمس عشرة صفحة، نجد الجاحظ يتناول القضايا نفسها في عشر صفحات، والبيهقي في ثمان.

٤ ــ ابن قتيبة، وقد تناول ثلاث قضايا هي:التحدي(٥)، والمعارضة(٦)، والنظم(٧) .

٥ ــ القاضي عبدالجبار، وقد اكتفى بذكر ثلاث قضايا هي: وجوه الإعجاز(٨)، والتحدي(٩)، والمعارضة(١).

---

(١)ينظر :حجج النبوة : ١٦٦ ــ ٢٦٩ ،٢٧٣ ــ ٢٨٠ ،والبيان عن الفَرْق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات:٢٣ ــ ٣١ ،ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة:١/ ١٦ ــ ١٧ .

(٢) ينظر : حجج النبوة : ٢٥٥ ــ ٢٧٧ ، والبيان عن الفَرْق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : ٢٧ ــ ٢٨ ، ٣١ ــ ٣٢ ، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١١ ــ ١٦ . وينظر البحث ص ٥٩ ــ ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٦ ــ ٦٧ .

(٣) ينظر : المصادر السابقة :حجج : ٢٧٧ ــ ٢٧٨ ، والبيان عن الفَرْق بين المعجزات : ٢٩ ــ ٣٠ ، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١٢ ــ ١٥ . وينظر ص :٩٠ ــ ٩٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٣ .

(٤) ينظر : المصادر السابقة :حجج : ٢٧٣ ــ ٢٧٤ ، والبيان عن الفَرْق بين المعجزات: ٢٣ ــ ٣٠ ، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١١ ، ١٥ . وينظر البحث ص ٥٤ .

(٥) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٢ . وينظر البحث ص ٦١ ، ٦٧ ، ٧٧ .

(٦) ينظر : المصدر السابق : ١٤٣ . وينظر البحث ص ١٠٧ .

(٧) ينظر : المصدر السابق : ١٤٣ . وينظر البحث ص ١٩٥ ــ ٢٠٣ ، ٢٠٦ ــ ٢٠٨ ، وغيرها.

(٨) ينظر : تثبيت دلائل النبوة : ١ / ٨٦ .

(٩) ينظر : المصدر السابق : ١ / ٨٥ ــ ٨٦ ، ٢ / ٣٧٢ ، ٤٠٠ . وينظر البحث ص ٦١ ، ٦٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٦ ــ الأصبهاني: وقد اكتفى بذكر قضية التحدي(٢).

وإذا أردنا النظر في عدد صفحات الكتاب الواحد من كتب دلائل النبوة، نجد أن هناك تبايناً واضحاً في عدد الصفحات التي تحدثوا فيها عن الإعجاز البلاغي: فالزيدي تحدث عن قضايا الإعجاز في ١٠٢ صفحة، والماوردي في ٣٠ صفحة، والأصبهاني في ٢٢ صفحة، والباقلاني في ١٥ صفحة، والجاحظ والقاضي عبدالجبار في ١٠ صفحات، وابن قتيبة والبيهقي في ٨ صفحات.

وإذا كان ما سبق يُبيِّن عدد الصفحات التي استغرقها كل عالم من علماء كتب دلائل النبوة في حديثه عن قضايا الإعجاز البلاغي، إلا أن تلك الأعداد لا تكشف بشكل دقيق عن مدى إسهام العالِم في تناوله لتلك القضايا، ولذلك فلا بد من النظر إلى نسبة عدد الصفحات التي تحدث فيها العالِم عن قضايا الإعجاز البلاغي إلى مجموع صفحات كتابه كاملاً؛ ولهذا فقد عمدت إلى استخراج النسبة المئوية لهذا التناول، فجاءت على النحو التالي:

م	المؤلف	عدد صفحات الكتاب كاملاً	عدد الصفحات التي احتوت على حديثٍ عن قضايا الإعجاز	النسبة المئوية
١	الزيدي	١٦٢	١٠٢	٦٢,٩ ٪
٢	ابن قتيبة	٣٠	٨	٢٦,٦ ٪
٣	الباقلاني	٨٦	١٥	١٧,٤٪
٤	الجاحظ	٥٨	١٠	١٧,٢٪
٥	الماوردي	٣٥٥	٣٠	٨,٤ ٪
٦	الأصبهاني	٦٠٠	٢٢	٣,٦ ٪
٧	عبدالجبار	٦٤٠	١٠	١,٥ ٪
٨	البيهقي	٣١٩٥	٨	٠,٢٥ ٪

(١) ينظر: المصدر السابق: ٢ / ٣٧٢ ــ ٣٧٨ . وينظر البحث ص ٨٥ ــ ٨٦ ، ٩٢ ــ ٩٣ ، ٩٦ ــ ٩٩ .

(٢) ينظر: دلائل النبوة: ١ / ٢٢٩ ــ ٢٥٠ . وينظر البحث ص ٦٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن خلال ما سبق يتبين ما يلي:

ـــ اقتصر بعض علماء كتب دلائل النبوة على ذكر بعض قضايا الإعجاز، كالأصبهاني، والقاضي عبدالجبار، وابن قتيبة، فلم يستغرقوا كل ما قيل في تلك القضايا، بينما أحاط الزيدي والماوردي بكل القضايا.

ـــ جاءت قضايا الإعجاز البلاغي مستغرقة لأغلب كتاب الزيدي، ومستحوذة على جزء كبير عند الماوردي، بينما طُرقت عند بقية العلماء طرقاً خفيفاً في صفحات معدودات من كتبهم.

ـــ جاء الكلام على وجه الإعجاز البلاغي في كتاب الزيدي، كالتمهيد للقضايا الأخرى التي استغرقت معظم الكتاب(١)، بينما ضمَّن الماوردي كلَّ قضايا الإعجاز البلاغي في وجوه الإعجاز التي ساقها(٢).

ـــ رغم أن كتب دلائل النبوة ليست كتباً مستقلة بالإعجاز، إلا أن مباحث الإعجاز البلاغي فيها قوية واضحة، فيها ذكرٌ لوجوه الإعجاز وبيانِ المختار منها، وذلك كما عند القاضي عبدالجبار، والزيدي، والبيهقي، كما أن فيها نقداً قوياً لما يحتاج إلى النقد من القضايا، وذلك كما عند الزيدي(٣).

ـــ لم تستو قضايا الإعجاز البلاغي التي ساقها علماء كتب دلائل النبوة من حيث الكمّ، فتارة يكون الحديث عن أحدها في أكثر من خمسين صفحة، كحديث الزيدي عن المعارضة، وأخرى يكون الحديث عنها في صفحة واحدة أو أقل، كحديث القاضي عبدالجبار عن وجوه إعجاز القرآن، وحديث الماوردي عن التفاضل بين الآيات في البلاغة.

---

(١) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم: ١٩ .

(٢) ينظر : أعلام النبوة : ١٢٧ ـــ ١٥٥ .

(٣) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٨٨ ـــ ٩٣ ، ١١٤ ـــ ١١٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـــ اشترك بعض علماء كتب دلائل النبوة في الإطناب في بعض قضايا الإعجاز، وإن كان للزيدي والأصبهاني نصيبٌ أكبر في ذلك، حيث جاءت قضيتا التحدي والمعارضة مطنبة غاية الإطناب، بينما جاءت قضية التفاضل بين الآيات في البلاغة عند الزيدي موجزة غاية الإيجاز.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني : الأصالة والتقليد

أسهمت جهود علماء كتب دلائل النبوة في إظهار عظمة كتاب الله تعالى، فكـان من أبرز ما دلَّ على عظمته هو بقاؤه وخلوده وعدم تأثره بمرور الليالي والأيام، الأمر الذي تفرَّد به بين سائر معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام. وبما أن مصنِّفي هذه الكتب من العلماء القدامى، فلا شك بأن فضل السبق كان من أهم الأسباب التي جعلتـهم يُظهـرون جوانب جديدة ومهمة من جوانب الإعجاز البلاغي، لا سيما وأنَّ ثلاثةً منهم قد ألَّفـوا في الإعجاز كتاباً خاصاً.

هذا وقد وقفت على سمات جديدة، وملامح بارزة، تمخَّضت عنـها رؤى علمـاء كتب دلائل النبوة، ومنها:

ـــ يُعد الجاحظ أول من عُني بالكشف عن قضية المعارضة، حتى دارت في الكتـب بعده نصَّاً ومعنى(١).

ـــ أشار الجاحظ إلى ألوان المقاومة من العرب، فبيَّن ما واجه به الكفار دعوة الـنبي ﷺ، وأنهم بدؤوا بالعداوة، وادَّعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه (٢).

ـــ كانت أول إشارةٍ إلى القدرِ المعجزِ من القرآن، وأقدم نصٍّ في هذا الصدد، لواحدٍ من هؤلاء العلماء، وهو الجاحظ، فقد ذهب إلى أن السورة القصيرة هي أقلّ المعجز، وذلك حين قال:((لو أنَّ رجلاً من العرب قرأ على رجلٍ من خُطبائهم وبُلغائهم سورة واحـدة، طويلة أو قصيرة، لتبيَّن له في نِظامِها ومَخرجها، وفي لفظِها وطَبْعها، أنه عاجزٌ عن مثلِهـا، ولو تحدى بها أبلغ العربِ لظهر عجزُه عنها)) (٣).

---

(١) ينظر : ص ١٠٤ من هذا البحث .

(٢) ينظر : حجج النبوة : ٢٧٤ ـــ ٢٧٥ .

(٣) المصدر السابق : ٢٢٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـــ كان لابن قتيبة الفضل في جمع ما تفرَّق من بعض الصور التي تدخل ضمن الفنون البلاغية، كما زاد عليها بعض الموضوعات، أما تفصيل القول فيها فيتجلى في كتابه (تأويل مشكل القرآن) تحت باب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر(١).

ـــ التأكيد على عظمة القرآن الكريم، وأن البشر وإن ضعف تذوقهم لبلاغة هذا القرآن، ومع كثرة ترديده ودوام تلاوته، إلا أنه ما زالت آياته وألفاظه تعمل عملها في القلوب(٢).

ـــ استشهد الزيدي لبلاغة الإيجاز في القرآن الكريم بآيات تختلف عن الآيات التي دأب على الاستشهاد بها من سبقه من العلماء(٣).

ـــ قسَّم بعض علماء كتب دلائل النبوة كتبهم تقسيماً جيداً، حيث يسهل الرجوع إلى موضوعات الكتاب وقضاياه، ويتجلى هذا بوضوح عند الزيدي والماوردي، ولعل هذا راجع إلى أن أصول التصنيف في عهدهم قد استقرت وتأصلت، وصار لها قواعد تضبطها، بينما لم يكن الأمر كذلك في القرون المتقدمة.

ـــ اهتمَّ الزيدي بالشعر ونقده، واتخذ منه وسيلة إيجابية وسلبية ـــ على حد سواء ـــ لإثبات إعجاز القرآن الكريم وبلاغته، فهو عنده وسيلة للاستدلال الإيجابي الذي يتميز بنظرة اتسمت بالوضوح والنضوج، كما أنه وسيلة للاستدلال السلبي لينفذ منه إلى إثبات إعجاز القرآن الكريم(٤).

هذه هي الرؤى الجديدة التي خرج بها علماء كتب دلائل النبوة، وأحسب أن لهم الفضل الأكبر في كشف النقاب عنها، و لم يكن لمن بعدهم ـــ غالباً ـــ إلا جمع تلك القضايا وحُسن عرضها.

هذا ومن المقرَّر أن يكون بجانب تلك الرؤى الجديدة أمورٌ وقضايا سُبق إليها علماء كتب دلائل النبوة، لا سيما والدراسات المصنَّفة في الإعجاز قد ظهرت منذ بواكير القرون

---

(١) ينظر : ١٩٥ ـــ ٢٠٣ من هذا البحث، وتأويل مشكل القرآن: ٢٧٥ ـــ ٢٩٨ .

(٢) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٤٥ ـــ ٤٧ ، وأعلام النبوة : ١٤١ .

(٣) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ .

(٤) ينظر : المصدر السابق : ١٠٢ ـــ ١٢٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأولى، فالحديث عن وجوه الإعجاز، والتحدي، وغيرها قد نال اهتماماً كبيرا من أولئك الذين صنفوا في الإعجاز كتباً خاصة، وبالتالي يَصعب إبراز جوانب جديدة في كتب موضوعها ــ في الأصل ــ إثبات دلائل نبوة النبي ﷺ.

هذا وقد استقى علماء كتب دلائل النبوة مادتهم من عدة مصادر، مزجوا خلالها كلامهم بكلام العلماء، وساقوا الأدلة على عدد من القضايا من مصادر شرعية ولغوية(١).

وقد قسمت تلك المصادر بحسب العلوم التي تناولها علماء كتب دلائل النبوة، وذلك على النحو التالي:

١ ــ مصادرهم في التفسير وعلوم القرآن:

لم يكن لعلماء كتب دلائل النبوة استفادة كبيرة من كتب التفسير وعلوم القرآن، ولذلك لم يعتمدوا عليها في كثير من المواضع، بل ذهب أغلبهم إلى ذكر رأيه في الآية القرآنية دون الرجوع إلى كتب التفسير أو علمائه. ولم أجد في كتبهم ما يُشير إلى الرجوع إلى التفاسير غير مواضع يسيرة عند الماوردي والبيهقي، فقد رجع الماوردي في أكثر من موضع إلى تفسير ابن عباس، يقول الماوردي:((وقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه في تأويل قول الله تعالى:] l m n o Z(٢)، أي تقلبك من أصلاب طاهرة من أب بعد أب إلى أن جعلتك نبياً))(٣). ولا عجب بأن يشير الماوردي إلى شيء من التفسير، فهو صاحب أحد المصنفات فيه.

---

(١) سيكون حديثي هنا شاملاً لجميع المصادر الشرعية واللغوية التي استفادوا منها، سواء أكانت تلك الاستفادة خلال حديثهم عن قضايا الإعجاز أو في غيرها.

(٢) سورة الشعراء : آية : ٢١٩ .

(٣) أعلام النبوة : ٢٠٠ ، وينظر : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : المنسوب جمعه للفيروز آبادي : ٣١٥ ، دار الكتب العلمية ، لبنان. وينظر : النكت والعيون : علي بن محمد الماوردي : ٤ / ١٨٩ ، تحقيق : السيد ابن عبدالمقصود بن عبدالرحيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما صرَّح البيهقي بالرجوع إلى تفسير مقاتل بن سليمان، حيث ذكـر البيهقـي بـأنَّ أول ما أُنزل على الرسـول ﷺ [K L M N O P Z(١)، وفي هذا يقـول البيهقي:((ولهذا شاهد في تفسير مقاتل)) (٢).

وقد يشير الزيدي إلى الأخذ من المفسرين دون عزو إلى معين، وذلك كقوله عند إيجاز الحذف في قوله تعالى: [(* + , - . / 0 Z(٣) ((ذُكر عن أكثـر المفسرين أن المراد إلى ثواب ربها ناظرة، فحذف الثواب)) (٤)، وقد ذكر الإمـام الطـبري جمعاً من المفسرين قالوا بهذا الرأي(٥).

وقد يستمدُّ علماء كتب دلائل النبوة بعض مادتهم عـن المـصنفين في الدراسـات القرآنية، فقد أشار الماوردي إلى ما حكـاه أبو عبيدة من((أن أعرابياً سمع رجـلاً يقـرأ: [. / 0 Z(٦) فسجد وقال: سجدتُ لفصاحة هذا الكـلام)) (٧)، كمـا أشـار البيهقي إلى ما رواه الخطابي عن بعض أهل العلم، يقول البيهقي: ((وفيما حكـى الـشيخ "أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي" عن بعض أهل العلم: أن الـذي أورده المـصطفى ﷺ على العرب من الكلام الذي أعجزهم عن الإتيان بمثله، أعجـب في الآيـة، وأوضـح في الدلالة من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص؛ لأنه أتى أهل البلاغة، وأرباب الفصاحة، ورؤساء البيان والمتقدمين في الألسن، بكلام مفهوم المعنى عندهم، فكان عجزهم أعجـبَ مِن عجز مَن شاهد المسيح عن إحياء الموتى؛ لأنهم لم يكونوا يطيقـون فيـه ولا في إبـراء الأكمه والأبرص، ولا يتعاطون علمه، وقريشٌ كانت تتعاطى الكلام الفـصيح والبلاغـة

(١) سورة العلق : آية : ١ .

(٢) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعـة : ٧ / ١٤٤ ، وتفسير مقاتل بن سليمان : مقاتل بـن سـليمان ابن بشير الأزدي البلخي : ٣ / ٥٠٠ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ.

(٣) سورة القيامة : آية : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٨ .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن : ٢٤ / ٧٢ ـ ٧٣ .

(٦) سورة الحجر : آية : ٩٤ .

(٧) أعلام النبوة : ١٢٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخطابة، فدلَّ أن العجز عنه إنما كان لأن يصير علماً على رسالته وصحة نبوتـــه، وهـــذا حجة قاطعة، وبرهان واضح)) (١).

وأعتقد أن السبب في عدم وجود استفادة كبيرة من الكاتبين في إعجاز القرآن كتباً خاصة، راجع إلى كون ثلاثة من علماء كتب دلائل النبوة قد ألَّف في حقل الإعجـــاز(٢)، كما أن الكتب المشهورة التي أُلفت في الإعجاز كرسالتيْ الخطابي والرمـــاني قـــد جـــاءت متأخرة نوعا ما، وبالتالي قد يكون كثير من علماء كتب دلائل النبوة لم يطلع عليها، أو أن تصنيف أحدهم كتابه في دلائل النبوة قد سبق تصنيف الخطابي والرماني لرسالتيهما، وأمـــا من تأخر من علماء كتب دلائل النبوة كالماوردي والبيهقي فقد أشرت إلى اســـتفادته مـــن كتب الإعجاز.

٢ ــ مصادرهم في الحديث النبوي الشريف:

كتب دلائل النبوة مليئة بالأحاديث النبوية الشريفة، ولما كان استناد أغلب العلمـــاء في هذه الكتب على حفظهم، اختلفت أساليبهم وطرقهم في ذكرهم لتلك الأحاديث علـــى النحو التالي:

أ ــ منهم مَن ذكر الحديث مخرَّجاً، منسوباً إلى راويه من الصحابة أو مَن دونه مـــن التابعين، و لم يفعل هذا غير البيهقي، الذي أورد كثيراً من الأحاديث مخرَّجـــة مـــع ذكـــر راويها، وقد رجع كثيراً في تخريجه إلى صحيح البخاري، ومن ذلك قوله:((أخبرنـــا أبـــو الحسين: محمد بن الحسين بن الفضل القطَّان ببغداد، قال أخبرنا عبدالله بـــن جعفـــر ابـــن درستويه، قال حدثنا يعقوب بن سفيان، قال: حدثنا أبو بكر الحميـــدي، قـــال: حـــدثنا سفيان، قال: حدثنا أبو الزِّناد عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال: رســـول الله ﷺ : ألا

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١٦ ــ ١٧ .

(٢) هؤلاء الثلاثة هم : الجاحظ ، والباقلاني ، والقاضي عبدالجبار.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعجبون كيف يَصرف الله عز وجل عني شتمَ قريشٍ ولَعْنَهم؟ يسبُّون مُذمَّماً، ويلعنون مذمماً، وأنا محمد. رواه البخاري في الصحيح)) (١).

كما رجع البيهقي كثيراً إلى صحيح مسلم، ومن ذلك قوله:((حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ رحمه الله، قال: حدثنا عمرو بن السماك ببغداد، والحسين ابن يعقوب العدل بنيسابور، قالا: حدثنا يحيى بن أبي طالب، قال: حدثنا عبد الوهاب ابن عطاء، قال: حدثنا سعيد عن قتادة عن غيلان بن جرير عن عبد الله بن معبد الزماني عن أبي قتادة الأنصاري: أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ عن صوم يوم الاثنين، فقال: ذاك اليوم الذي ولدت فيه، وأنزل عليَّ فيه. أخرجه أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري في الصحيح من حديث مهدي بن ميمون وأبان بن يزيد العطار)) (٢).

ويرجع البيهقي كذلك إلى سنن أبي داود، ومن ذلك قوله:((أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد بن علي الروذباري، أخبرنا أبو بكر ابن داسة، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا حماد بن سلمة، عن أشعث بن عبد الرحمن عن أبيه عن سمرة بن جندب، أن رجلا قال يا رسول الله: إني رأيت كأن دلوا دُلِّي من السماء، فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شرباً ضعيفاً، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء علي فأخذ بعراقيها فانتشطت(٣) فانتضح عليه منه شيء. أخرجه الإمام أبو داود)) (١)، وقد ضعَّف الشيخ الألباني هذا الحديث(٢).

---

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١٥٢ ، وينظر : صحيح البخاري : ٣ / ١٢٩٩ (باب ماجاء في أسماء رسول الله ﷺ). وقد رجع البيهقي كثيراً إلى صحيح البخاري ، ينظر : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٩٤ ، وغيرها.

(٢) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ٧٢ ــ ٧٣ ، وينظر : صحيح مسلم : ٢ / ٨١٨ (باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وصوم يوم عرفة ، وعاشوراء ، والاثنين والخميس). وقد رجع البيهقي كثيراً إلى صحيح مسلم ، ينظر : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، وغيرها.

(٣) الانتشاط هو الجذب والانتزاع ، ونشط الدَّلو من البئر ينشطِها وينشطُها نشطاً : أي نزعها وجذبها من البئر صُعُداً بغير قامة . ينظر : لسان العرب : ١٤ / ٢٦٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا غرو أن يكون التخريج والرواية من عمل البيهقي، فهو صاحب التصانيف في الحديث، وأحد أئمة المحدِّثين.

ب ــ ومن علماء كتب دلائل النبوة مَن يورد الحديث بالسند، ومن أمثلة ذلك ما يذكره الماوردي، حيث يقول:((ومن آياته ﷺ ما رواه سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة، قال: صعد النبي ﷺ حراء، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبدالرحمن والزبير وطلحة وسعيد، فتحرك الجبل، فقال النبي ﷺ : اسكن حراء، فليس عليك إلا نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو شهيد، فسكن الجبل)) (٣)، كما يورد الأصبهاني أحاديث كثيرة على مثل هذه الطريقة، ومن ذلك قوله:((حدثنا عمر بن حمدان، قال: حدثنا الحسن ابن سفيان، قال: حدثنا زكريا بن يحيى، قال: حدثنا هُشَيْم عن الزهري عن محمد بن جُبير ابن مُطعم عن أبيه قال: أتيتُ النبي ﷺ لأُكلمه في أسارى بدرٍ، قال: فوافقته يصلي بأصحابه صلاة عشاء المغرب، قال: فسمعته يقول:] إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن ﴿٨﴾ Z(٤)، قال: فكأنما صَدَع قلبي)) (٥).

ج ــ ومن علماء كتب دلائل النبوة من يكتفي بذكر الحديث مع الراوي، ومن ذلك ما يذكره الماوردي عن ((علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: سمعت

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ٦ / ٣٤٩ ، وينظر : سنن أبي داود : سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي : ٢ / ٦١٩ (باب في الخلفاء) تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الفكر. وقد رجع البيهقي كثيراً إلى سنن أبي داود ، ينظر : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ٦ / ٣٢٧، ٣٤١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٤٠٧ ، وغيرها.

(٢) ينظر : السنة : لأحمد بن عمر بن أبي عاصم، ومعه: ظلال الجنة في تخريج السنة : محمد ناصر الدين الألباني : ٢ / ٣٠٥ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٣هـ.

(٣) أعلام النبوة : ١٦٣ . والحديث أخرجه مسلم في صحيحه : ٤ / ١٨٨٠ (باب من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما).

(٤) سورة الطور : آية : ٧ ــ ٨ .

(٥) دلائل النبوة : ١ / ٢٣٦ . والحديث أخرجه الطبراني في : المعجم الكبير : ٢ / ١١٦ ، تحقيق : حمدي ابن عبدالمجيد السلفي ، مكتبة العلوم ، الموصل ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رسول الله ﷺ يقول: ما هممت بشيء مما كان في الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله تعالى بيني وبين ما أريد ...)) (١)، وقد ضعَّف الشيخ الألباني هذا الحديث(٢).

د ــ ومن علماء كتب دلائل النبوة من يذكر الحديث دون تخريجٍ أو ذكر لمن رواه من الصحابة أو التابعين، وهذا كثير في كتبهم، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الجاحظ من دعاء النبي ﷺ على قريش وأنه قال:((اللهم سنين كسني يوسف، اللهم اشدد وطْأتك على مُضَر)) (٣)، كما أورد ابن قتيبة أحاديث على مثل هذه الطريقة، ومن ذلك استدلاله بأن الكتاب يأتي بمعنى الفرض والحكم(٤)، ومنه((قول النبي ﷺ للمتحاكمَين إليه، فقالا له: ((اقض بيننا بكتاب الله ... والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله))(٥).

٣ ــ مصادرهم في العقيدة:

ذكر علماء كتب دلائل النبوة كثيرا من المسائل العقدية، دون رجوع إلى مصدر معين، فجُلُّ كتاب الباقلاني عن مسائل العقيدة، كحديثه عن بعض الفِرق، والسحر والكهانة وغيرها(٦). كما أشار الماوردي إلى ذات الله تعالى، وأنه سبحانه واحد الذات، قديم الصفات، وأنه ليس كمثله شيء(٧). وكذلك البيهقي فقد عقد باباً كاملا تحدث فيه

(١) أعلام النبوة : ٢٤٠ . والحديث رواه البزار في : البحر الزخار المعروف بمسند البزار : ٢ / ٢٤١ ، تحقيق : د. محفوظ الرحمن زين الله ، مؤسسة علوم القرآن ، مكتبة العلوم والحكم ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ.

(٢) ينظر : دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الردِّ على جهالات الدكتور البوطي في كتابه فقه السيرة : محمد ناصر الدين الألباني : ١٣ ــ ١٤ ، منشورات مؤسسة ومكتبة الخافقين ، دمشق ، ١٣٩٧هـ.

(٣) حجج النبوة : ٢٦٧ . والحديث أخرجه البخاري في صحيحه : ١ / ٣٤١ (باب دعاء النبي ﷺ)، ولفظه عند البخاري:((اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف)).

(٤) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٦ .

(٥) أخرجه البخاري : باب الاعتراف بالزنا : ٦ / ٢٥٠٢ .

(٦) ينظر : البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : ٥٦ ــ ١٠٨ .

(٧) ينظر : أعلام النبوة : ٢٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن مَن كان في قلبه زَيغ متشابهات الكتاب، وما يسعى إليه المبتدعة من تـرك المحكمـات وإقبال على المتشابهات، يسألون عن تأويلها، حتى يفتتنون بها(١).

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الهدف من كتب دلائل النبوة، إنما هو إرسـاء أركـان عقيدة المسلم، وأن العقيدة الإسلامية تنفرد من بين العقائد الـسماوية الأخـرى بـدلائل فريدة، تُمكِّنها من الخلود إلى يوم القيامة، ويتمثَّل هذا جلياً في حفـظ الله تبـارك وتعـالى لكتابه الكريم، فهو الأصل الذي يَستقي منه العبد المؤمن تلك العقيدة.

٤ ــ مصادرهم في اللغة العربية:

لم يُصرح علماء كتب دلائل النبوة بالرجوع إلى مصادر معينة في اللغة إلا نـادرا، لكن تلك المظاهر البلاغية التي تطرقت إليها في الفصل الثاني من هذا البحث تشير بـشكل واضح إلى استفادة هؤلاء العلماء من المصادر اللغوية بمختلف علومها: النحويـة والبلاغيـة والأدبية واللغوية.

فأما استفادة علماء كتب دلائل النبوة من المصادر النحويـة، فيظهر ــ على سبيل المثال ــ من خلال ذكر الزيدي للهجات العرب، وأن منها جرّ الاسم لمجـاورة المجـرور، وإن لم يكن ذلك حقه، ومن ثم يُصرح بمذهب نحاة البصرة في هذه المسألة، وأن ذلـك لا يجوز عندهم(٢).

كما أن مسألة الحذف التي تحدث عنها الزيدي تتشابه مع ما كتبـه النحويـون في هذا الباب، فهو يذكر حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وإضمار أحد المـذكورين وإظهار فعل الآخر لهما، ويورد شواهد ذكرها ابن جني في الموضع نفسه(٣).

وكذلك حينما يتحدث ابن قتيبة عن تناوب المصادر، وأبنيـة المـشتقات، وذلـك كمجيء (فعول) في موضع (مفعول) (٤).

---

(١) ينظر : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ٦ / ٥٤٥ .

(٢) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٩٨ .

(٣) ينظر : المصدر السابق : ١٠٨ ، ١١٠ ، والخصائص : ٢ / ٣٦٢ ، ٤٣١ .

(٤) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما المصادر البلاغية التي رجع إليها علماء كتب دلائل النبوة، فتتضح من خلال استفادة الزيدي من كتاب (البديع) لابن المعتز، وذلك في أسلوبَي الالتفات والجناس، وقد أشرت إلى ذلك في موضعه(١).

وأما المصادر الأدبية واللغوية، فيظهر أثرها في إكثار العلماء من ذكر الأبيات الشعرية، ويتجلى هذا عند ابن قتيبة، والزيدي، والماوردي(٢)، كما صرَّح الزيدي برجوعه إلى كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة، وكتاب (الفصيح) (٣) لثعلب، وذلك في أثناء حديثه عن خبر إنذار النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها من كلاب الحوأب، ((وتعريفه إياها بأن كلاب الحوأب تنبحها في مسراها))(٤)، يقول الزيدي:((وقال ثعلب في كتاب"الفصيح": وهي كلاب الحوأب ... وقد ذكر أيضاً القتيبي في أدب الكتاب ...)) (٥).

كما تظهر استفادة علماء كتب دلائل النبوة من المصادر اللغوية من خلال الطريقة التي عَمد فيها ابن قتيبة إلى رصد المعنى المعجمي للكلمة، وذلك مثل تحديده معنى(قوم) في قوله تعالى] يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ Z(٦)، وأن هذا اللفظ خاص بالرجال دون النساء.

كما يَظهر لي بأن الزيدي قد اطلع على كتاب (العين) للخليل بن أحمد، حيث يقول:((ألا ترى أن الخليل بن أحمد كان أكثر في اللغة والعلم بأوزان الشعر وعيوبه

---

(١) ينظر : ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥ ، ٢٤٩ من هذا البحث .

(٢) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٥ ، ١٤٦ ، وإثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٨ ، وغيرها ، وأعلام النبوة : ٧٧ .

(٣) كتاب (الفصيح) كتابٌ شهير تناوله علماء العربية بالشرح والتهذيب، واشتهر باسم(فصيح ثعلب)، وقد قال فيه مؤلفه:((هذا كتابُ اختيار فصيح الكلام مما يجري في كلام الناس وكتبهم))، وقال أيضاً:((هذا كتابٌ اختصرناه وأقللناه؛ لتخفّ المؤنة فيه على متعلّمه الصغير والكبير، وليُعرف به فصيح الكلام)) ينظر : شرح فصيح ثعلب : محمود بن عمر الزمخشري : ١ / ١٤ ، تحقيق : إبراهيم بن عبدالله بن جمهور الغامدي ، جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤١٧هـ.

(٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٤٠ .

(٥) المصدر السابق : ١٤٠ .

(٦) سورة الحجرات : آية : ١١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومحاسنه من امرئ القيس ...، والخليل تعلَّم اللغة حتى أحاط بها)) (١)، كما نقل منه بالمعنى في بعض المواضع من كتابه(٢).

وبعد النظر في كتب دلائل النبوة، اتضح لي اختلاف طرق استفادة العلماء من تلك المصادر، وذلك على النحو التالي:

١ ــ قد يستفيد بعض علماء كتب دلائل النبوة من كتبه التي ألفها، ويتجلى هذا بوضوح عند ابن قتيبة، فمادة كتابه ــ عند حديثه عن الإعجاز ــ كثير منها مبثوث في كتبه الأخرى، وقد ينقل منها ــ أحياناً ــ بالنص(٣)، وقد يُضيف عليها أو يختصر في بعض المواضع(٤). وأحسب أن ابن قتيبة قد أكثر من النقل من كتبه الأخرى، وهذا مأخذ عليه؛ لأن المصنِّف إذا أكثر من النقل لم يتميز جهده فيه، وبالتالي يصعب الحكم عليه، كما تخفى مع كثرة النقول بعض الأفكار الجديدة.

٢ ــ قد ينقل علماء كتب دلائل النبوة من كتب غيرهم، ولهم في ذلك عدة طرق:

أ ــ النقل من غير تصرُّف في النص، مع الإشارة إلى قائله، وهذا قليل في كتبهم، ومثال ذلك ما ساقه الماوردي من أمثلة على المعارضة المعلنة، حيث يقول:((فحكى ابن قتيبة عن مسيلمة أنه قال في معارضة القرآن: يا ضفدعُ نقي كمْ تنقِّين، لا الماء تُكدِّرين، ولا الشراب تمنعين، فلما سمع هذا أبو بكر ﷺ قال: إن هذا الكلام لا يخرج من إلٍّ))(٥).

ب ــ التصرف في النقل، وعدم الإشارة إليه، ومن ذلك ما نقله الزيدي عن الخليل بن أحمد في كلامه عن اللغات الفاشية في العرب، نحو "عنعنة تميم" و "كشكشة ربيعة"، فقد نقل الزيدي من كتاب (العين) أبياتاً شعرية، مع تعليق الخليل عليها، وقد رجعت إلى كتاب (العين) فوجدت أن نقل الزيدي منه كان بالمعنى، وأن أكثر النص

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٦٢ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ٩٧ .

(٣) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٤ ــ ١٤٥ ، والمسائل والأجوبة : ٢٢٨ .

(٤) ينظر : المصدر السابق : ١٤٥ ، وتأويل مشكل القرآن : ٣٠ .

(٥) أعلام النبوة : ١٥١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنقول كان جامعاً بين النقل بالمعنى وبين اختيار الزيدي لبعض النصوص، يقول الزيدي:((فمن أقسام الفصاحة أن يكون الكلام مركباً من اللغات الفاشية في العرب التي لم يسترذلها أحد منهم، نحو " عنعنة تميم " و " كشكشة ربيعة " وذلك أن قوماً من تميم تجعل الهمزة المفتوحة عيناً، وأنشد الخليل فيه:

* وحبها موشكٌ عن يصدع الكَبِدا *

أراد: أن يصدع ... قال الخليل: من ترك عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة فهم الفصحاء)) (١).

ج ــ النقل من غير عَزو، وذلك كقولهم في عدة مواضع: (قال آخرون)، و(حكي عن آخر)، و(قيل)، و(لهذا قالوا)، و(من الناس)، وهذا ظاهر في كتبهم، ومن الأمثلة على ذلك قول الزيدي:((ولهذا قالوا: إن الشاعر المفلق: هو الذي يرمي قريحته بالبيت بعد البيت...)) (٢)، وقول الماوردي:((وقال آخرون: محمد ﷺ نبيٌّ مبعوث إلى قومه من العرب...)) (٣).

د ــ النقل من الكتب من غير إشارة، وهذا وجدته عند الزيدي، فهو ينقل كلام بعض العلماء من غير إحالة أو إشارة لهذا النقل، حتى يَظهر للقارئ أن النص من كلامه وهو ليس كذلك، ومثال ذلك: قوله في قول الله تعالى] z y x w v } Z (٤) ((أي تترخصوا، فسمى الترخص إغماضاً؛ لأن الإنسان يصرف بصره عما لا يحب أن يراه، ويقف على حقيقته)) (٥). وعند الرجوع إلى كتاب "تأويل مشكل القرآن" يتبين بأن الزيدي قد نقل المعنى من ابن قتيبة(٦). وقد تكون هذه الفائدة العلمية قد

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٩٧ ، وينظر : كتاب العين : ١ / ٩١ .
(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٩٤ .
(٣) أعلام النبوة : ١٢٠ .
(٤) سورة البقرة : آية : ٢٦٧ .
(٥) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٥ .
(٦) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ١٤١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

استقرت في ذهن الزيدي، فلم يتمكن من معرفة مصدرها، وذلك لأنه قد يكون قد قرأهـــا ونسي مصدرها، أو أنه سمعها من بعض شيوخه.

هذا وتجدر الإشارة إلى اختلاف تأثير تلك المصادر على علماء كتب دلائل النبـــوة، فالباقلاني والقاضي عبدالجبار قد تأثرا بمصادر العقيدة، وأما الأصبهاني والبيهقي فقد تـــأثرا بمصادر الحديث النبوي الشريف، وأما بقية العلماء فقد ظهر تـــأثرهم بمـــصادر مختلفـــة، كالتفسير، وعلوم القرآن، والحديث، والعقيدة، واللغة العربية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث : العمق والسطحية

ظهر لي بعد دراستي لكتب دلائل النبوة تفاوت دراسة العلماء فيها لقضايا الإعجاز البلاغي بين العمق والسطحية، فقد أجد عند بعـــضهم عمـــق الـــتفكير، وبُعـــد النظـــر، والشمول، رغم قِدم عصره، وقلة صفحات كتابه التي تحدث فيها عن تلك القضايا، وقـــد أجد عند بعضهم الآخر سطحية في عرض المضمون، لكن لا يخلو ذلك العرض من فائـــدة علميـــة.

وبعد استعراض مُعمَّق في مناقشات العلماء وأقوالهم وأدلتـــهم في تلـــك القـــضايا، اتضح لي تنوع طرحهم، وذلك على فئات ثلاث:

١ ــ فئة يغلب عليها طابع العمق: ويظهر هذا ــ بوضـــوح ــ عنـــد الجـــاحظ، والزيدي، والماوردي.

فأما الجاحظ فقد جمع بين عمق المعنى، وبُعد المأخذ، ويتجلى هـــذا في كـــثير مـــن المواضع التي تحدث فيها عن قضايا الإعجاز، ومن ذلك حديثه عن المعارضة، فقد عَمـــد إلى تكوين دراسة جديدة فيها، تمثّلت في بيان أهمية المعارضة، وذكر أسبابها ودواعيها، وبـــأيِّ لون من ألوان المقاومة واجه العرب هذا القرآن. فقد قام برصد ألـــوان المقاومـــة، مفـــصِّلاً القول فيها في أغلب المواضع، ومستحضراً الشواهد لما يذكر، يقول الجاحظ عن العـــرب:((ادعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه، وهو قوله عزَّ ذكره: [s t u v w x y z { | } ~ Z(١)، وهل يُذعن الأعراب، وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز، والتوقيف على النصّ، ثم لا يبذلون مجهودهم، ولا يُخرجون مكنونهم، وهم أشـــد خلق الله ــ عز وجل ــ أنفة، وأفرط حمية، وأطلبُه بطائلة، وقد سمعـــوه في كـــلّ منـــهل

(١) سورة الأنفال : آية : ٣١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وموقف، والناس موكلون بالخطابات، مولعون بالبلاغات، فمن كان شاهداً فقـد سمعـه، ومن كان غائباً فقد أتاه به من لم يزوده)) (١). فهذا النص وأمثاله يكشف لنا مدى العمـق عند الجاحظ، وكيف يأتي للأشياء من بُعْد ويوظفها لخدمة القضية التي يتحدث عنها.

ولئن كان طابع العمق يغلب على حديث الجاحظ في قـضايا الإعجـاز، إلا أنـني أجد في مواضع يسيرة شيئاً من السطحية، وتظهر هذه السطحية عندما يشير الجـاحظ إلى النظم القرآني، فقد تناوله في عبارات مقتضبة لا تتصف بالعمق(٢)، ولعل السبب في ذلـك أنه خصص كتاباً مستقلاً في نظم القرآن.

وأما الزيدي فقد رأينا كيف تناول قضايا الإعجاز من كل جانب، وكيف نـاقش ودلَّل في تلك القضايا، وذلك على غرار ما فعله من ألَّـف في الإعجـاز كتابـاً خاصـاً، كالخطابي والرماني، كما رأينا كيف كان الزيدي يضع المقاييس لأساليب البلاغة(٣).

ويصل العمق عنده إلى اتخاذ طريقة أهل الجدل والكلام في المناقشة وتحليل المـسائل، فقد ناقش ما يتعلق بآيات التحدي بقوله:((فإن قيل: تلاوة آية التحدي لا تكون تحـديا، وإنما التحدي أن يبتدئ مخاطبتهم بالتحدي.

قيل له: لا فرق بين الأمرين في حصول التحدي، بل إذا قرأ عليهم آيـة التحـدي، وعرَّفهم أنها من عند الله تعالى، ربما كان أبلغ في التحدي، على أن آية التحدي في أوائلـها الأمر بالتحدي؛ لأنه تعالى يقول:] 3 4 Z (٤)، ولا يجوز أن يظهر ـ صـلى الله عليه وعلى آله ـ أن الله تعالى أمره أن يقول قولاً إلا ويعرف منه أنه قـال ذلـك أو مـا ينوب منابه)) (٥).

---

(١) حجج النبوة : ٢٧٥ .

(٢) ينظر : حجج النبوة : ٢٧٤ ، ٢٧٩ .

(٣) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠١ ـ ١١٣ .

(٤) سورة الطور : آية : ٣٤ .

(٥) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٣١ ـ ٣٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا ويلحظ القارئ لقضيتي التحدي والمعارضة عند الزيدي عمق نظرته وشمولهـا، حيث جاء حديثه عنهما بطريقة لم أرها عند غيره من علماء كتب دلائل النبوة، فجـاءت وافية بالمراد كيفاً وكمَّـا.

هذا ولئن كان الزيدي أوسع دائرة من غيره في الإتيان بقضايا الإعجاز البلاغي، إلا أنَّ عرضه في بعض المواضع يتخلله شيء من اليسر والسطحية، ويتمثـل هـذا في إشـارته لبعض فنون البديع، مع عرض بعض الشواهد عليها، دون وقوف طويل(١).

وأما الماوردي فهو يشبه ـــ إلى حدٍّ كبيرـــ تناول الزيدي، فقد طَرق كل القـضايا، واتخذ ـــ في بعض المواضع ـــ طريقة أهل الكلام في العرض والتحليل.

هذا ويظهر العمق عند الماوردي من خلال مناقشاته العلمية الجادة، فعلى الرغم من اختياره لأسهل الألفاظ وأوضح الجمل، إلا أنه جعل العمق ودقة النظر في الأقوال أسـاس دراسته لقضايا الإعجاز البلاغي، مع جمع مُنتقى حَوَى ما ذكره السابقون قبله من وجـوه الإعجاز، وما قرَّره هو من وجوه فيها جِدَّة وتأصيل.

ومن أمثلة العمق عند الماوردي قوله في الوجه الرابع عشر من وجوه إعجاز القـرآن إن: ((اختلاف آياته في الطـول والقصر لا يخرج عن أسلوبه، ولا يزول عـن اعتدالـه، وغيره من نظم الكلام ونثره إذا تفاصلت أجزاؤه، زال عن وزن منظومه واعتدال منثـوره، فصار ذلك من إعجـازه.

فإن قيل: زيادة طوله هذر، ونقصان قصره حصر، فكيف يكون معجزاً إذا تردد بين هذر وحصر ؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أن الزيادة تكون هذراً إذا لم تُفد، والنقصان يكون حـصراً إذا لم يقنـع، والزيادة من طوله مفيدة، والنقصان من قصره مقنع، فخرج عن الهذر والحصر.

والثاني: أن الطويـل لو انفرد لم يكن هذرا، والقصير لو انفرد لم يكن حصراً، فلم يكن اجتماعهما موجباً لهذر وحصر، كاختلاف السور في القصر والطول، فإن أقصر السور

(١) ينظر : المصدر السابق : ١١١ ـــ ١١٣ ، ١٢٠ ـــ ١٢٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سورة الكوثر، وتشتمل مع قصرهـا على أربعة معان: إخبار بنعمة، وأمر بعبادة، وبـشرى بمسرَّة، وأسلوب هو معجزة، فلم تخرج إذا قرنت بما هو أطول أن تكون معجزة))(١).

وللسطحية مكان في عرض الماوردي لقضايا الإعجاز البلاغي، فقد تنـاول الـنظم بشكل عام جداً، واكتفى بذكر بعض ملامحه العامة، يقول الماوردي:((وأما حسن نظمـه فيكون من وجهين: أحدهما: أن يكون الكلام متناسبـاً لا يتنافر.

والثاني: أن يكون الوزن معتدلاً لا يتبـاين))(٢).

٢ ـ وفئة تجمع بين العمق في مواضع، والسطحية في مواضع أخرى: وهذا أجـده عند ابن قتيبة، والباقلاني، والقاضي عبدالجبار.

فأما ابن قتيبة فيتمثل العمق عنده في ذكره لمطاعن الطاعنين الذين اتبعـوا متـشابه القرآن بأفهام كليلة وأبصار عليلة، وكأنه يهدف من ذكرها إلى أن يُقرر للطاعنين ويبـيِّن لهم أن القرآن الكريم نزل بكل طرق العرب في فنِّ القول، وذلك لبيان إعجاز نظم القرآن. يقول ابن قتيبة في بداية حديثه عن تلك المطاعن:((وكلام العرب وحيٌ وإيماء وإيجاز، فمنه محذوف للاختصار، ومزيد فيه للتوكيد، ومكرر للإفهام، ومستعار، ومقلوب ...)) (٣)، ثم يفصل القول في بعض تلك الفنون بنظرة تشكلت عمقاً وشمولاً وتنوعا، بقـدر مـا قـرَّر لنفسه في بداية حديثه حين قال:((وقد قابلت ذلك بالاحتجاج عليهم فيه، وتبيين المخارج منه، في كتابي المؤلف في تأويل المشكل من القرآن، وكتابي المنسوب إلى المسائل، وطـال أن أعيد ذلك في هذا الكتاب ورأيته يخرجه عن فنه، فاقتصرت في طيـِّه على حروف متيسرة معدودة ابتهلتها على غلطهم وسوء أفهامهم، وكرهت أن ينطوي ذلك كله عنك فيتعلـق قلبك إلى أن يتيسر لك النظر في ذينك الكتابين)) (٤).

---

(١) أعلام النبوة : ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٣) أعلام رسول الله : ١٤٤ .

(٤) المصدر السابق : ١٤٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد تجد في حديثه عن تلك الفنون العمق والعذوبة معاً، وهما صــفتان لا تجتمعــان غالباً، فقد يورد للفن البلاغي الذي هو بصدده تطبيقات كاملة، وأمثلة متنوعة، تكــشف عن مهارة في الكتابة، وقدرة فذة على التعبير.

ولم يكن حديث ابن قتيبة عن التحدي والمعارضة عميقاً، بل أشار إشارات ســريعة إليهما، يقول ابن قتيبة:((ومن أعلامه ﷺ الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لم يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، أنزله الله عليه زمن الشعر والبلاغة والخطابة والبيان، وجعله عَلَم كما جعل عَلَم كل نبي من أشبه الأمور بما في زمانه المبتعــث فيه ... وقد تحداهم عليه السلام في موطن بعد موطن على أن يأتوا بسورة من مثلــه))(١)، وأمــا المعارضة فقد اكتفى ابن قتيبة بذكر النصوص التي عارض بها بعض العرب القرآن(٢).

وأما الباقلاني فيتمثل العمق عنده في تكرار الحديث عن نظم القرآن الكريم في بداية حديثه حيناً، وفي وسطه وآخره حينا آخر، مما يوحي بجوٍّ من الغموض الذي يُحلِّق بالقارئ في أجواء يصعب معها تحديد نظرة محدَّدة وواضحة تُبين رؤية الباقلاني لهذه القضية.

وقد خصَّ الباقلاني التحدي بفصل قصير، وجاء حديثه عنه بشكل عــام، واقتــصر فيه على تقرير فكرة واحدة تمثلت في قوله:((وفيه أيضاً من عظيم الشأن ما ليس في غــيره من آيات الرسل، وهو بقاؤه تحدياً أبداً للمخالفين في نبوته عليه السلام في الإتيان بمثله، وعجزهم عن ذلك، فهي آية باقية حاضرة لا يحتاج في العلم بوجودها إلى إخبار المخــبرين، ونقــل الناقلين)) (٣).

وأما القاضي عبدالجبار فقد تحدث عن ثلاث قضايا من قــضايا الإعجــاز، هــي الوجوه، وقضية التحدي، والمعارضة المخفية، فكان في الأولى والثانية سطحياً، فأمــا الأولى

(١) المصدر السابق : ١٤٢ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ١٤٣ .

(٣) البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : ٣١ ــ ٣٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد ذهب يُعدد وجوه الإعجاز دون بيان أو شرح(١)، مع أنه كان من أوائل العلماء الذين تحدثوا عن الإعجاز القرآني، ودرسوه دراسة جادة.

وأما القضية الثانية عند القاضي عبدالجبار وهي قضية التحدي، فقد تحدث عنـها في موضعين، وكان حديثه فيهما عاماً؛ إذ بيَّن فيه تحدي الله للأمم في كل أحوالهم، منفـردين أو مجتمعين، أن يأتـوا بمثل هذا القرآن، فما أتوا به مع حاجتهم إلى ذلك، وشدة حرصهم عليـه(٢).

أما المعارضة المخفية فقد تحدث عنها بعد حديثه عن التحـدي في موضـعه الأول، ويتضح العمق فيها من خلال اتخاذه لطريقة المعتزلة في الحِجاج والاستدلال، فقد قام بـالردِّ على حجج الطاعنين، ومن ثم ساق الأدلة على عدم جواز خفاء المعارضة، وذلك بطريقـة مطوَّلة تبعث بالملل، وتُقلِّل من الانتباه والتركيز.

٣ ـ وفئة هي أقرب ما تكون إلى السطحيـة وعدم التوسع، وهذا يُلحظ بوضوح عند الأصبهاني والبيهقي.

أما الأصبهاني فقد افتتح حديثه ببيان تأييد الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ بما لم يؤيـد بـه أحداً من العالمين، وخصَّه من الخصائص بما يفوق حدَّ كرامات الأنبياء ومراتـب الأوليـاء، فكانت علامته ﷺ القرآن المبين، ثم بين الأصبهاني بأن الـنبي ﷺ تحـدى أولـو الأحـلام والنهى، بالقرآن يقرع به أسماعهم، مع ما لهم من الفصاحة واللسان والبلاغة والبيـان، أن يأتوا بسورة يخترعونها بأهون سعي وأدنى كلفة(٣). ولم يزد الأصبهاني على هـذه الفكـرة شيئاً، غير سرد مجموعة من الأحاديث التي بين فيها أثر القرآن الكريم في سامعيه(٤).

---

(١) ينظر : تثبيت دلائل النبوة : ٨٦ .
(٢) ينظر : المصدر السابق : ١ / ٨٥ ، ٢ / ٣٧٢ ، ٤٠٠ .
(٣) ينظر : دلائل النبوة : ١ / ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(٤) ينظر : المصدر السابق : ١ / ٢٣٠ ـ ٢٥٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما البيهقي فرغم سعة حجم كتابه والذي بلغ سبعة مجلدات كبيرة، إلا أن حديثه عن كل قضايا الإعجاز جاء بشكل مختصر ومباشر، وكان بإمكانه أن يُطيل ويُعمِّق البحث فيها بشكل أكبر؛ إذ موقع هذه القضايا من الكتاب يساعد على ذلك، فقد ولج البيهقي إليها من أول كتابه، فكان الأولى به أن يطيل النظر فيها، لا سيما وأنه بصدد الحديث عن أكبر دليل من دلائل النبوة.

وقد ألتمس العذر للأصبهاني والبيهقي، فطبيعة كتابيهما لا تسمح بذلك؛ إذ هي قائمة على ذكر الأحاديث والأخبار.

ولعلي أستطيع بعد هذا العرض أن أدون بعض المظاهر العامة، والملحوظات التي تجلت لي خلال هذا المبحث، ومن أبرزها:

١ ـ تنوَّعت دراسة العلماء لقضايا الإعجاز واختلفت طريقة كل واحد منهم في عرضها، فمنهم من تعمَّق فيها، ومنهم من تناولها تناولاً سطحياً، ومنهم من وجدنا لديه عمقاً في مواضع وسطحية في مواضع أخرى.

٢ ـ لا عجب أن يكون الجاحظ ممن تعمق في دراسته لأغلب هذه القضايا، فهو المعروف بغزارة علمه واستطراداته المشهورة، ولذلك فقد وجد مادة خصبة أسهب من خلالها في هذا البحث، لكنَّ الأمر الذي يثير الانتباه حقاً هو أنَّ الجاحظ لم يتعمق في قضيةٍ كنتُ أحسبه سيُسهب فيها ويتعمَّق في جوانبها، ألا وهي قضية النظم وروعة الأسلوب القرآني، وإذا كان يُعتذر له بأنه قد تناول هذه القضية بتوسُّعٍ في كتابه المفقود "نظم القرآن"، فإنَّ هذا لا يعني أن يُغفل التعمق في هذه القضية، لا سيما وأنه يتحدث في هذا الكتاب عن حجج النبوة التي من أبرزها معجزة القرآن الكريم، ومع كل هذا فلربما كان الجاحظ قد تناول هذه القضية باستفاضة في الجزء المفقود الذي أشرت إليه في موضع آخر من هذا البحث(١).

(١) ينظر : ص ٣٠٠ من هذا البحث .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣ ــ كان للتحدي والمعارضة النصيب الأوفر من تعمق علماء كتب دلائل النبـوة، فأغلب هؤلاء العلماء تناولوا هاتين القضيتين بتوسُّعٍ ظاهر، وأفاضوا في معالجة كـثيرٍ مـن الجوانب التي تتصل بهما، ولا سيما الزيدي الذي أشرت آنفاً أنه تناولهما بشمولية وعمـق استثنائي، ولا غرو في اهتمام العلماء بهما؛ فهاتان القضيتان تمثلان مرتكزاً مهمـاً لإثبـات حجج النبوة ودلائل الرسالة.

٤ ــ أشعرُ أن اتخاذ طريقة أهل الجدل والكلام في معالجة بعض قـضايا الإعجـاز البلاغي وطريقة عرضها كان له الأثر الكبير والواضح في تعميق الدراسـة لهـذه القـضايا والتوسع في تناولها ومحاولة استقصاء جوانبها، ويظهر ذلك جلياً عنـد الزيـدي في تناولـه لقضية التحدي والمعارضة، والماوردي في دراسته لقضية التفاضل، والقاضي عبد الجبـار في معالجته لقضية المعارضة المخفية.

٥ ــ ومن الملاحظات التي تلفت الانتباه في هذا العرض اختلاف طريقة دراسة ابن قتيبة للقضايا عن غيره من علماء كتب دلائل النبوة، ففي الوقت الذي لم أجد عنـد أحـد من هؤلاء العلماء ــ باستثناء الزيدي ــ عمقاً واضحاً في تناول قضية النظم والإشـارة إلى إعجازه البلاغي والبياني وعلوه في الفصاحة يأتي ابن قتيبة ليدرس هـذه القـضية بـشمول وعمق واضحين، وفي الوقت الذي يتعمق فيه بقية العلماء في قضيتي التحـدي والمعارضـة ويفيضوا في معالجتهما لا نجد ابن قتيبة ينتهج النهج نفسه، بل كان يشير إليهمـا إشـارات سريعة، فالتحدي لديه لا يتجاوز بضعة أسطر، واكتفى في المعارضة بذكر بعض نماذج ممـن توهم بعض المغفلين أنهم عارضوا بها القرآن.

٦ ــ أرى أن تفاوت تناول هؤلاء العلماء لقضايا الإعجاز بين العمق والـسطحية ربما يرجع إلى عدة أسباب منها: إدراك العالم لأهمية القضية التي يتحدث عنـها وعكـسه، ومنها اعتقاده بأنه استوفى الحديث عنها وألمَّ بجوانبها في كتاب آخر ولا يريد أن يكرر مـا قاله هناك، ومنها غزارة علمه في قضية معينة وكثرة خبرته فيها وعكسه، ومنها ما يتـصل بطبيعة الكتاب التي ربما لا تسمح بالتوسع في تناول قضية ما أو التعمق فيها.

٧ ــ يتربع الزيدي الصدارة في اتخاذه العمق منـهجاً لأغلـب دراسـته لقـضايا الإعجاز، فرغم أنه يفوق جميع علماء دلائل النبوة من ناحية كثرة ما تناوله من قـضايا إلا أنَّ السطحية تكاد تتلاشى من طريقة عرضه، حتى فنون البديع التي أشـرتُ آنفـاً إلى أنَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تناوله لها يتخلله شيء من اليسر والسطحية لم أجد مِن العلماء مَن يشير إليها ـــ فضلاً عـــن أن يتحدث عنها، باستثناء ابن قتيبة الذي اكتفى بذكر التورية فقط ـــ كما تحـــدث عنـــها الزيدي، وهذا بلا شك من الأمور التي تُحسب له.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الرابع

شبهات دعوى أن القرآن ليس معجزاً ببلاغته وردُّها

ليس بغريب ألا يُسلم الإنسان لخصمه بالفضل، فطبيعته تستلزم ذلك، بل لا يرضى أحد لنفسه أن يُتهم بعدم القدرة أو يوصف بالعجز، وهو قادر على إذلال عدوه، وهذا ما حصل لكفار قريش في بداية عهد النبوة المحمدية، فقد جاءهم نبيٌ من بني جلدتهم ليخبرهم بأنه رسول رب العالمين إلى البشر كافة، ويأمرهم بعبادة الله تعالى، وترك عبادة الأصنام، وحجته ومعجزته في هذا هي أن الله ﷻ أنزل عليه كتاباً عربياً يعرفون ألفاظه، ويدركون معانيه، فهم أهل الفصاحة والبيان.

ومن خلال هذه المعجزة الإلهية، يتحداهم النبي ﷺ بأن يأتوا ـــ منفردين أو مجتمعين ـــ بمثل هذا القرآن أو ما يقاربه، قال تعالى:] , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ Z[1]، فكيف يتحداهم النبي ﷺ ثم لا تستجيب أنفسهم إلى معارضته؛ ليُدلِّلوا على قدرتهم وعدم عجزهم، وليُبيِّنوا له كذبه في دعواه. لكن تلك المعارضات لا تقارب ما جاء به القرآن من فصاحة وبلاغة، فأوْدت بأصحابها إلى الفضيحة واستهزاء العرب بهم.

وهكذا أصبح الإعجاز القرآني البلاغي حقيقة لا شبهة فيها، حتى إذا جاء القرن الثالث الهجري بدأت تلك الشبهات التي أثارها الطاعنون من الملاحدة للتشكيك في القرآن وبلاغته، فبدأ أهل العلم بتصنيف الكتب للردِّ على هؤلاء الطاعنين، وما أورده ابن قتيبة في " تأويل مشكل القرآن "[2] أكبر دليل على ذلك.

---

(١) سورة الإسراء : آية : ٨٨ .

(٢) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٢٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبما أن علماء كتب دلائل النبوة قد طرقوا موضوع الإعجاز البلاغي، فليس من الغريب أن يتناولوا بعض تلك الشبه التي أثارها الحاقدون، فقد أسهموا بطرحها والردِّ عليها.

ومن أهم الشبهات التي وردت في كتب دلائل النبوة، وساقها العلماء للردِّ على من ادعى أن القرآن ليس معجزاً ببلاغته ما يلي:

١ ــ القول بأن عدم الإتيان بمثل القرآن ليس لإعجازه، وإنما لعدم علمهم:

يقول الزيدي عن هذه الشبهة:((فإن قيل: ما أنكرتم على من قال: إني أُسلم أن هذه الآيات ــ يعني آيات التحدي ــ في جملة القرآن، لكن ما تنكرون أن تكون هذه الآيات لم تلفت مشركي العرب، ولم تكن قرعت أسماعهم، ولا علقت بأفهامهم؛ لأنها أو عامتها في السور الطوال، وكان الذي تعلق لحفظ مشركي العرب، إنما هو الآية بعد الآية، والكلمة بعد الكلمة، أو السورة بعد السورة من السور القصار، وكانت هذه الآيات مغمورة في جملة القرآن، وفي السور الطوال، فبهذا لم يهتموا بمعارضته.

قيل لهم: قد علمنا أن النبي ﷺ كان يتلو القرآن على أصحابه، وعلى من كان يفد عليه من المشركين من أحياء العرب ومدنها ثلاثاً وعشرين سنة، حتى تحققه الخلق من الصحابة، وكانوا يتلونه في المحافل والمجامع، وبين أهليهم في صلواتهم ومدارسهم ومجالسهم، وكان المشركون يسمعون ذلك، ويقرع أسماعهم، وإن لم يكونوا يحفظونه. وانتهى الإسلام في هذه المدة إلى اليمن، وسائر نواحي العرب، ويكفي في آية واحدة من آيات التحدي أن تقرع أسماعهم، فكيف يصح أن يقال: إنها لم تبلغهم ...)) (١).

ولا يكتفي الزيدي بذلك، بل يورد عدة أدلة نقلية على صحة ما ذكر، وذلك حينما يقول:((يؤيد ما ذكرناه ويوضحه: الآثار الواردة في اجتماع مشركي العرب على التشاور والنظر في حال القرآن، وتدبر أمره، حتى قال الوليد بن المغيرة ــ لعنه الله ــ : قد سمعت الأشعار والخطب، وكلام الكهنة، وليس القرآن شيئاً من ذلك ... وقد حكى الله

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٢٧ ــ ٢٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى عن بعضهم أنه قال:] y z { | { ~ }Z(١)، ويقال: إنه أمية ابن خلف(٢) لعنه الله، وهذا دليل على أنه عرف التحدي والتقريع، فدفع عن نفسه بما قال في نفس الوقت والحال.

وأيضاً فإن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة، كثر المنافقون، واختلطوا بالمسلمين، وحضروا الجماعات ومواضع الصلوات، وكذلك أهل الكتاب اختلطوا بالمسلمين حتى لم يَخفَ عليهم عامة أحوالهم، فكيف يُظن بأنه خفي عنهم آيات التحدي بواحدة؟. وفي وقوف بعضهم عليها، وقوف عامة المشركين؛ لأنهم كانوا يهدونها إليهم ولو على أجنحة الطير، لأغراض مختلفة)) (٣).

وفي تفصيل الزيدي لهذه الشبهة، إشارة إلى مدى حيرة العرب في شأن القرآن، حتى بدؤوا بالدفاع عن أنفسهم من خلال إطلاق علل هزيلة سخيفة.

وقد سبق الباقلانيُّ الزيديَّ في إيراد هذه الشبهة، وذلك بعد أن ردَّ الباقلاني على القائلين بالصرفة، حيث يقول:((وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم: أن الكل قادرون على الإتيان بمثله، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به)) (٤). لكن الباقلاني لم يُفصِّل في الرد كما فعل الزيدي.

---

(١) سورة الأنفال : آية : ٣١ .

(٢) بل القائل هو : النضر بن الحارث ، وقد أجمع على ذلك جمهور المفسرين ، ينظر : جامع البيان للطبري : ١٣ / ٥٠٣ ــ ٥٠٤ ، وتفسير القرآن العظيم : ٢ / ٢٧٩ ، وتفسير البيضاوي : ٣ / ٥٧ ، وروح المعاني : ٩ / ٢٦٢ ، وينظر : لباب النقول في أسباب النزول : جلال الدين السيوطي : ٩٧ ــ ٩٨ ، ضبطه وصححه : أحمد عبدالشافي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٢٧ ــ ٢٩ .

(٤) إعجاز القرآن : ٣١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ ــ القول بأن القرآن مكوَّن من الحروف، وأن جنسها مما يقدر عليه البشر، وهذا يؤدي إلى التناقض؛ لأنه لا يصح أن يكون جنس المعجز في مقدور العباد:

يقول الزيدي عن هذه الشبهة:((فإن قيل: فما تنكرون على من قال: إن القرآن هو من هذه الحروف، وجنسها مقدور للبشر، ولا يصح أن يكون المعجز جنسه في مقدور العباد؛ لأنه يؤدي إلى التناقض، لأن من شأن المعجزات أن [تتعذر] (١) على العباد، وما كان جنسه مقدوراً لهم، فهو متأتى منهم، والتأتي ينافي التعذر، وإذا كان ذلك كذلك لم يصح أن يكون القرآن معجزا.

قيل له: هذا الذي ادعيت من التناقض على الوجه الذي ظننت ظاهر السقوط؛ لأن جنس الشيء وإن كان مقدوراً للعباد، فإنه لا يجب أن يصح فعل ذلك الشيء منهم على كل وجه، بل لا يمتنع أن يتعذر فعله على بعض الوجوه، وإن صحَّ فعله على وجه آخر، وهذا لا يؤدي إلى التناقض؛ لأنه من الوجه الذي يتأتى لا يتعذر، ومن الوجه الذي يتعذر لا يتأتى، وإنما يتعذر ما يتعذر بما يكون جنسه مقدوراً للعباد؛ لأن القادر ربما احتاج لإيقاعه على وجه مخصوص إلى كونه عالماً، أو في حكم العالم، أو يحتاج إلى الآلة وما يجري مجرى الآلة، أو القلم فيما يحتاج لفعله على وجه مخصوص إلى كونه عالماً تعذَّر فعله على ذلك الوجه، وإن كان جنسه مقدورا. ألا ترى أن الفعل المحكم وإن كان جنسه مقدوراً لمن ليس بعالم فإنه يتعذر عليه، ولا يتأتى مثله؟، ألا ترى أن هذه الحروف أجمع مقدورة للناس أجمع، ومع هذا فلا يصح من أحد إيقاعها على وجه يكون متكلماً بلغة العرب إذا لم يكن عالماً بلغتهم، وكذلك لا يصح إيقاعها من الأعرابي على وجه يكون متكلماً بلغة الفرس، إذا لم يكن عالماً بلغتهم؟)) (٢).

ثم يسوق الزيدي أمثلة أخرى ليُدلِّل بها على عدم جواز ما ذهبوا إليه، ويضرب لهم أمثلة من واقعهم ومشاهداتهم الحياتية لعلهم يتدبرون أو يعقلون، يقول معقباً على ما سبق:((وكذلك حكم الصناعات أجمع، كالكتابة والصناعة وغيرهما؛ لأن جنس ذلك

---

(١) في الأصل [يتعذر] وأحسب أن الأقرب كونها [تتعذر].

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٦٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أجمع مقدور للجميع، ثم إيقاعها على وجه الإتقان والإحكام يتعذر على من لم يكن عالما بتلك الصناعة، وكذلك الآلة أيضا. ألا ترى أن الخياط يتعذر عليه الخياطة مع كونه قادراً عليها وعالماً بها إذا فقد الإبرة ... ونظائره أكثر من أن تعد وتحصى.

فإذا صحَّ ذلك وثبت وصحَّ سقوط قول من قال: إنه يتناقض كون الشيء مقدوراً لنا، متعذراً فعله علينا، على وجه مخصوص، فإذا ثبت ذلك، جاز أن يكون القرآن معجزاً يتعذر فعله على جميع البشر، وإن كان جنسه مقدوراً لنا)) (١).

لقد أراد الزيدي أن يُقرر وجه دلالة المعجزة على صدق النبي ﷺ، وأن استخدام نفس الحروف والألفاظ التي يستخدمها البشر في أساليبهم هو قمة التحدي والإعجاز، كما أراد أن يثبت أن النبي ﷺ عندما جاء بهذه المعجزة أراد منها إثبات تميز القرآن بفصاحته وبلاغته؛ لأن قائله هو الله جل جلاله.

٣ ــ قِدم عهد الفصاحة:

يقول الزيدي عن هذه الشبهة:((فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إن ما ادعيتموه من النبي ﷺ ابتداء الإتيان به لا يصح؛ لأن الفصاحة لم يكن هو ﷺ ابتدأها، بل كانت متقادمة العهد، متداولة في العرب، قد استمرت عليها الأعصار، وتصرفت فيها الأفكار؟

قيل له: لسنا نزعم أن الذي اختص به القرآن هو الفصاحة فقط حتى يلزمنا ما ذكرتموه، وإنما نقول: إنما الذي اختص به هو هذا النظم المخصوص، والأسلوب المتميز واقعاً في أعلى طبقات الفصاحة، وإذا كان هذا هكذا، ولم يُعرف للعرب قبله ﷺ هذا النظم المتميز عن غيره، صحَّ ما قلناه من أنه ابتدأ به على الغاية في معناه.

فإن قيل: إلى ماذا تشيرون بقولكم: هذا النظم المخصوص، والأسلوب المتميز، فإنا لا نعقل فيه أمراً زائداً على الكلام المعتاد، ولم نعرف تميزاً إلا بالفصاحة؟

---

(١) المصدر السابق : ٦٤ ــ ٦٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قيل له: نريد بذلك ما نعرفه، ويعرفه كل متأمل كلام العرب؛ لأن كلامهم أجمع لا يخلو من أن يكون موزوناً أو غير موزون، فالموزون تختلف أجناسه، ويتميز قصيده عن رجزه، وكل ذلك مما يعرفه أهله، وما ليس بموزون منه ينقسم أربعة أقسام: منها نظم الخطب وطريقتها، ومنها نظم الترسل ومنهاجه، ومنها أسجاع الكهنة، ومنها المحاورات التي تجري بين الناس، ملفوظاً بها ومكتوباً في منافع الدين والدنيا ومضارهما، وما ينطوي على الجد والهزل، ووجدنا أسلوب القرآن ونظمه مفارقاً لهذه الأساليب أجمع؛ لأنه ليس من نظم الخطب ولا الرسائل ولا أسجاع الكهان ولا المحاورات، يعرفه كل من تأمله ممن ليس له أيسر حظ من المعرفة لكلام العرب)) (١).

والمتأمل لهذه الشبهة يرى أنها أشد ضعفا وأوهى من غيرها، لأن القرآن لم يختص بالفصاحة فحسب حتى يُحتج بأنَّ قِدم عهد الفصاحة مانعٌ من إعجاز القرآن البلاغي، بل إنَّ القرآن يختص كذلك بنظم مخصوص وأسلوب متميز، وقد بين الزيدي أنَّ القرآن قد فاق جميع كلام العرب بنوعيه؛ الموزون، ويقصد به الشعر، وغير الموزون، ويقصد به ما سوى الشعر من خطب وأسجاع وترسل ومحاورات، ويعرف هذه الحقيقة كلُّ مَن تأمل في القرآن وحاول أن يعقد مقارنةً بينه وبين ما سواه، حتى لو كان مَن يفعل ذلك ليس له أدنى معرفة بكلام العرب.

٤ ــ دعوى أن الإعجاز يختص بالفصاحة المجردة دون النظم أوالعكس:

تحدث الزيدي عن الوجوه التي ادعي أن إعجاز القرآن يتعلق بها، وذكر منها: أن الإعجاز إنما يتعلق بالفصاحة المجردة، وهو قول أكثر المتكلمين. ومنها أن الإعجاز إنما يقع في النظم المخصوص الذي يميز به القرآن عما سواه. ومنها أن الإعجاز إنما يقع فيهما جميعاً ــ يعني النظم مع الفصاحة البالغة ــ وهو ما اختاره الزيدي(٢).

---

(١) المصدر السابق : ٧٩ ــ ٨٠ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ٨٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غير أن الزيدي بدأ ينتصر لقوله، مورداً الشُّبه التي من خلالها يُقرِّر عدم وقوع الإعجاز بالفصاحة أو النظم على الانفراد، وفي ذلك يقول الزيدي:((فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إن النبي ﷺ قد تحدى بالقرآن، وعلمنا ذلك من حاله، ولم يثبت أن النظم كان مقصوداً بالتحدي، وإذا لم يثبت ذلك، ثبت أنه لا بد من وجه يكون هو المقصود بالتحدي، وثبت أن ذلك الوجه هو الفصاحة فقط، فبطل قول من يقول: إن النظم مقصود بالتحدي؟

قيل له: لا فصل بينكم وبين من قال: لم يثبت أن الفصاحة مقصودة بالتحدي، وإذا لم يثبت ذلك فكان لا بد من وجه يكون هو المقصود بالتحدي، وعليه ثبت أن ذلك الوجه هو النظم فقط، وذلك أن القرآن له هذا النظم المخصوص والفصاحة المخصوصة، وقد وقع التحدي به، وثبت عجز البشر عن الإتيان بمثله، فلم يكن ادعاء تعلق العجز بأحد الأمرين أولى من ادعاء تعلقه بالآخر، فيجب أن يقال: إنه لا يتعلق بواحد منهما، ولا يصح القول بأنه لا يتعلق بواحد منهما؛ لأنه لا بد من وجه به يتعلق الإعجاز، ويكون هو المقصود بالتحدي، فإذا ثبت ذلك فيجب تعلق الإعجاز بالأمرين، وأن يكونا جميعاً مقصودين بالتحدي على ما ذهبنا إليه. على أنا قد عرفنا من حال كل من ادعى أنه يعارض القرآن، أو يأتي بما يقاربه نحو مسيلمة، وطُليحة، وابن المقفع، على اختلاف أحوالهم، طلب الأسلوب والفصاحة معاً، ولم يكن فيهم من كان يأتي بشعر أو خطبة فيدعي أنه قد أتى بما يقاربه، فدلَّ ذلك على أنهم أجمعون عرفوا أن المقصود بالتحدي هو النظم والفصاحة معاً، فدلَّ ذلك على صحة ما قلناه.

على أن قوله ﷻ:] فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ Z (١)، وقوله ﷻ:] & ' ( ) * Z(٢) يدل على أن النظم مقصود بالتحدي؛ لأن اسم السورة لا ينطلق على الشعر، ولا الخطبة، ولا الرسالة، ولا أسجاع الكهنة، ولا المحاضرة، وإنما ينطلق على ما له

(١) سورة البقرة : آية : ٢٣ .

(٢) سورة هود : آية : ١٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا النظم المخصوص. فإذا كان كذلك كان قوله:] قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ Z(١) جارياً مجرى أن يقول: فأتوا بجملة لها هذا النظم المخصوص، فبان صحة ما ادعيناه من تعلق الإعجاز بالنظم مع الفصاحة.

فإن قيل: إذا ثبت هذا النظم المخصوص لم تكن العرب تعرفه، ولا جرت عادتها باستعماله، فمن أين ادعيتم: أن اسم السورة يتناوله دون سائر أجناس الكلام؟

قيل له: هذا الاسم [جارٍ] (٢) مجرى الأسماء الشرعية؛ لأنه لم تكن العرب تستعمله في جمل شتى من أجناس الكلام، وإنما استعمل ذلك بعد نزول القرآن، إلا أنه لما قال ﷻ:] بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ Z (٣)، وقال:] ') (* Z(٤) صحَّ أنه يجوز استعماله فيما يجانس نظمه من الكلام، وهذه دلالة قوية يجوز أن تعتمد ابتداء في بيان أن النظم مقصود بالتحدي، وإذا ثبت ذلك، ثبت الإعجاز بالنظم على ما قلناه.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إن الإعجاز تعلق بالنظم فقط؟

قيل: قد تقدم بيان فساد قول من يقول ذلك؛ لأنا بيَّنا أن مثل هذا النظم لا يجوز أن يتعذر على من لا يتعذر عليه سائر أجناس النظم، وذلك يُسقط هذا السؤال، ولا يصح أيضاً سؤال من يسأل فيقول: إذا لم يكن النظم معجزاً، فيجب أن تكون الفصاحة هي المعجزة، ولا سؤال من يسأل فيقول: إن الفصاحة قد انتقضت بها العادة، فلا وجه لضم الأسلوب إليها؛ لأنا قد بينا أن الإعجاز بهما تعلق، وأنه لا سبيل لنا إلى العلم بأن فصاحة القرآن قد بلغت إلى حد انتقضت به العادة، وبينا أن الإعجاز بهما تعلق ـــ أعني النظم والفصاحة ـــ وأن ذلك جارٍ مجرى العلة ذات وصفين، في أن كل واحد من الوصفين لا يتعلق الحكم به على الانفراد.

---

(١) سورة يونس : آية : ٣٨ .

(٢) جاء في الأصل [جاري] وصوابها : جارٍ ، من دون ياء ، وقد تكرر هذا الخطأ عند الزيدي.

(٣) سورة البقرة : آية : ٢٣ .

(٤) سورة هود : آية : ١٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن قيل: فإذا قلتم: إن النظم على الانفراد غير متعذر على البشر، وكذلك الفصاحة على الانفراد غير متعذرة على البشر، فكيف يصح أن تقولوا: يتعذر عليهم الجمع بينهما، وهذا يؤدي إلى القول بأن الإتيان بمثل القرآن لا يتعذر على البشر؟

قيل له: معاذ الله من ذلك، فإن القول الذي قلناه لا يؤدي إلى ما ذكرتم على ما نبينه ونوضحه، وذلك أن الذي من أجله أن لا يتعذر النظم هو العلم الذي يحصل به وهو العلم بأن كل كلمة إذا وقعت عقيب أي كلمة أعقب هذا: النظم أو غيره من نظم أجناس الكلام، موزونه أو منثوره، ويتعذر ما يتعذر من ذلك لفقد هذا العلم، وكذلك الذي من أجله أن لا تتعذر الفصاحة هو أن يعلم أن كل كلمة إذا وقعت عقيب أي كلمة، وما جرى مجراها من تبديل حرف عن حرف، أو كلمة عن كلمة، خرج الكلام فصيحاً.

وجملة هذا العلم هي علوم ضرورية، وإن كانت لا تحصل إلا بالممارسة، كالعلم بالمهن والصناعات، ثم العلم بما إذا أتى به كان فصاحة في الطبقة الدنيا أو الوسطى أو العليا في نظم مخصوص علم ثالث(١). وهو أيضاً إذا حصل حصل ضرورة، وإذا كان هذا هكذا لم يمتنع أن يكون الله ﷻ لم يجمع لأحد من البشر بين هذه العلوم الثلاثة. أحدها: هو العلم بما به يكون هذا النظم واقعاً في أعلى طبقات الفصاحة، وإذا لم يمتنع ذلك لم يمتنع أن يتعذر على جميع البشر الإتيان بمثل القرآن لفقد أحد العلوم الثلاثة، وإن حصل العلمان.

يكشف هذه الجملة: أنا نعلم أن الكاتب الذي يكتب الرسائل في أعلى طبقات الفصاحة إذا عدل عنها إلى الشعر ربما لم يمكنه أن يأتي به في أعلى طبقات الفصاحة))(٢).

لقد أراد الزيدي أن يستقصي جميع الشبه التي تثار حول إعجاز القرآن وتقصد من خلال ذلك أن تثبت أن الإعجاز إنما يختص بجانب دون جانب، فأوضح الزيدي خلال تلك الردود أنَّ إعجاز القرآن يتعلق بالنظم والفصاحة معاً، ولا يصح الاقتصار على واحد منهما دون الآخر.

---

(١) يقول محقق الكتاب:((يقصد بالعلوم الثلاثة: الأسلوب، والفصاحة، وفن اختيار الكلمات)) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٩٢ .

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٨٩ ــ ٩٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥ ــ وجود معارضة قوية:

وعنها يقول الزيدي:((فإن قيل: فقد حكي عن مسيلمة، وطليحة الأسدي، وبالأخير عن ابن المقفع، فصولٌ عدة ادعي أنها معارضة للقرآن فما قولكم فيه؟

قيل له: أول ما في هذا أنه مما يدل على أن المعارضة للقرآن لم تقع؛ لأنها لو وقعت لنقلت، كما نُقلت هذه الفصول التي ذكرتها، ولم يمنع منها مانع، كما لم يمنع من نقل هذه الفصول مع ما فيها من الركاكة والسخافة في النظم والوضع. وجملة الكلام في هذا: أنها تنقسم قسمين: إما أن تكون كلاماً مسترذلاً لا ينحط عن كلام المتوسطين في العربية من أهل هذا العصر والأعصار التي كانت قبله، فكيف أن تبلغ مرتبة كلام فصحائهم ما جرى هذا المجرى. لا يخيل على أحد أنه ليس يجوز أن يظن به أنه معارض للقرآن؟، كما لا يجوز أن يُظنَّ أن أشعار الحبر الوردي(١) تصلح أن تكون معارضة لأشعار امرئ القيس، والنابغة أو الأعشى، أو يكون المورد له أخذ ألفاظ القرآن فقدَّم منها البعض، وأخَّر البعض وزاد فيها، ونقص منها . ومثل هذا لا يُعد معارضة؛ لأنه لو عُدَّ معارضة لكان لا يتعذر على المفحم إذا عرف وزن الشعر أن يعارض ديوان امرئ القيس، وسائر الشعراء الفحول من القدماء والمحدثين))(٢).

وبعد هذا الرد بدأ الزيدي بذكر ما حُكي عن مسيلمة الكذاب، وطليحة الأسدي، وابن المقفع، من معارضات، ثم أخذ ينقدهم واحدا تلو الآخر، ولعلي هنا أكتفي بنقده لمعارضات مسيلمة الكذاب؛ لأنه قد سبق الحديث عنها في موضع آخر(٣).

يقول الزيدي بعد ذكره لعدد من معارضات مسيلمة:((وهذه الفصول أبْين سخافة، وأظهر ركاكة من أن يحتاج إلى ذكرها في كتابنا هذا، على أنها مما ليست فيه شبهة على أحد سمعها، لكنا ذكرناها ليتعجَّب منها المتعجِّب، وليعلم أنها لو كانت للقرآن معارضة في الحقيقة لنقلت، كما نقل هذا الكلام السخيف الذي لو أراد بعض

---

(١) لم أعثر له على ترجمة .

(٢) المصدر السابق : ٣٧ ــ ٣٨ .

(٣) ينظر : ص ١٠٨ ــ ١١١ من هذا البحث .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتعلمين الذين تكون بضاعتهم في اللغة مزجاة، إيراد أسجاع في هذا المعنى لم يرض لنفسه بمثل هذا)) (١).

وكأن الزيدي بعد كلامه هذا بدأ يُشكِّك بمسيلمة أو يعتذر له؛ لا لنفي نسبة هذا الكلام لمسيلمة، وإنما لبيان أن هدفه منه ليس معارضة القرآن، بل هدفه أنه منزل عليه من عند الله تعالى، وفي ذلك يقول الزيدي:((والرجل ــ أعني مسيلمة ــ وإن كان كذاباً وقحاً، فإنه كان رجلاً من العرب، و لم يبلغ به جهله إلى أن يدعي أنه يعارض بمثل هذا الكلام القرآن؛ لأنه لو فعل ذلك كان يفتضح بين قومه، وهو لم يوردها على أنها معارضة، وإنما كان يوردها على أنها منزلة عليه، وليس كل ما يقصد أن يدعي فيه أنه منزل من عند الله يمكن أن يقال فيه: أنه معارضة للقرآن؛ لأنا لا ندعي إعجاز القرآن من حيث أنه منزل من عند الله تعالى فقط، بل لأوصاف أخرى تخصُّه))(٢).

وأنا هنا لا أتفق مع الزيدي فيما ذكره عن مسيلمة، فإنَّ هذا الكذاب قد تجرأ وادعى النبوة، وهذه الوقاحة التي جعلته يفعل ذلك لن تمنعه أن يدعي أنه عارض القرآن، ثم إنني لا أجد فرقاً كبيراً بين أن يدعي هذا الكذاب الأشر أنه عارض القرآن وأن يدعي أنه منزل عليه من عند الله تعالى؟

ثم ساق الزيدي لمسيلمة أقاويل أخرى، غير أنَّه هذه المرة بيَّن أن هذه الأقاويل مع سخافتها إلا أنها أخف مما تقدم من كلامه، والعلة في ذلك: أن مسيلمة أدخل في كلامه شيئاً من ألفاظ القرآن، وأخذ الابتداء من بعض سوره، فاكتسى كلامه هذه المرة ضرباً من الزِّبْرج(٣)؛ لما فيه من ألفاظ القرآن(٤). ويُعقّب الزيدي على هذا بقوله:((واعلم أن الشاعر يُدخل لفظةً من القرآن في بيت من الشِّعر، أو يُدخلها الكاتب في فصل من كتابه، والمحاور في فصل من محاورته، فيكتسب ذلك البيت، وذلك الفصل من العذوبة والرَّوْنق ما

(١) المصدر السابق : ٣٨ .
(٢) المصدر السابق : ٣٩ .
(٣) سبق بيانه : ينظر : ص ١٠٩ ، حاشية رقم : ١ .
(٤) ينظر : المصدر السابق : ٣٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُصيّره غرَّة في سائره، وهذا من عجيب ما اختص به القرآن، وفيه دلالة واضحة: أنه مُباينٌ لكلام البشر والحمد لله))(١).

٦ ــ ظاهرة التكرار في القرآن:

أشار الماوردي إلى التكرار في القرآن وهو يتحدث عن الوجه الثاني من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو الإيجاز. وقد طرح من خلاله شبهة وجود التكرار في القرآن الكريم، وقام بالرد عليها، يقول الماوردي:((فإن قيل: ليس جميعه وجيزاً مختصراً، وفيه المبسوط، والمكرَّر بعضه أفصح من بعض، ولو كان من عند الله لتماثل و لم يتفاضل؛ لأن التفاضل في كلام من يَكِلُّ خاطره، وتضعف قريحته، فعنه جوابان:

أحدهما: أن اختلافه في البسط والإيجاز ليس للعجز عن تماثله، ولكن لاختلاف الناس في تصوره وفهمه، وتفاضله في الفصاحة بحسب تفاضل معانيه لا للعجز عن تساويه.

والثاني: أنه خالف بين معانيه ومختصره، وبين أفصحه وأسهله، ليكون العجزُ عن أسهله وأبسطه أبلغَ في الإعجاز من العجز عن أفصحه وأخصره، ولذلك فاضل بين خلقه ليُعرف به فرقُ ما بين الفاضل والمفضول ... فأما تكرار قصصه، وتكرار وعده ووعيده فلأسباب مستفادة منها أنها في التكرار أوكدُ، وفي المبالغة أزْيد، ومنها أنها تتغاير ألفاظها فتكونُ إلى القبول أسرع، وفي الإعجاز أبلغ، ومنها أنها إنْ أخلَّ بالوقوف عليها في موضعٍ أدركها في غيره، فلم يخْلُ من رغب ورهب))(٢).

لقد ساق الماوردي فوائد التكرار، وهو بذلك يوضح أن التكرار يقع باللفظ مرة، وبالمعنى مرة أخرى، أما اللفظ فظاهر بيِّن من خلال حديثه، وأما المعنى ففي قوله:(ومنها أنها تتغاير ألفاظها فتكون إلى القبول أسرع، وفي الإعجاز أبلغ)، والتكرار في المعنى هو الذي يرد كثيراً في قَصص القرآن الكريم، كقصة آدم، ونوح، وموسى، عليهم السلام، فمع أن هذه القَصص تتكرر في القرآن، إلا أنها تأتي في كل سياق بصيغة وألفاظ مختلفة،

---

(١) المصدر السابق : ٣٩ .

(٢) أعلام النبوة : ١٢٩ ــ ١٣٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي هذا النوع من التكرار يقول ابن قتيبة:((وأما تكرار الأنباء والقصص، فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، بفرضٍ بعد فرض؛ تيسيراً منه على العباد، وتدريجاً لهم إلى كمال دينه ... وكانت وفود العرب تَرِد على رسول الله ﷺ للإسلام، فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن، فيكون ذلك كافياً لهم، وكان يبعث إلى القبائل المتفرِّقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مُثنـَّاةً ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم. فأراد الله بلطفه ورحمته أن يُشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويُلقيها في كل مسمع، ويُثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير)) (١).

وبعد.. فقد كان جهد الزيدي والماوردي واضحاً في الدفاع عن القرآن الكريم، وإثبات إعجازه البلاغي، والتأكيد على علوه في الفصاحة، وبيان أنه قد بلغ الغاية في روعة النظم وجمال الأسلوب، وذلك من خلال إيرادهم لبعض الشبهات التي تريد أن تنال من إعجاز القرآن، وتوهم العامة أن إعجازه لم يكن لبلاغته وفصاحته، وقد أجادا في دحض هذه الشبهات بالبيان القاطع والحجج الدامغة.

واللافت للانتباه أن هذه الشبهات وأمثالها لم يوردها أحد من علماء كتب دلائل النبوة في كتبهم التي ألفوها في هذا الغرض، ما عدا الزيدي والماوردي اللذين أشدت بجهديهما آنفا.

أما ابن قتيبة فقد أورد بعض الشبه بطريقة مغايرة لما رأيناه عند الزيدي والماوردي، فقد كان عرضه لهذه الشبه تطبيقياً، بينما كان عند الزيدي والماوردي نظريا، وقد درست الشبه التي أوردها ابن قتيبة ضمن الفصل الثاني من هذا البحث.

ولعل بقية العلماء قد تطرَّق بعضهم إلى هذه الشبهات في مؤلفات أخرى، ورأوا أن في ذكرها مرة أخرى نوعاً من التكرار، فربما الجاحظ قد أشار إلى بعض هذه الشبه في كتابه المفقود (نظم القرآن)، أما الباقلاني، والقاضي عبد الجبار فقد تعرضا لبعض هذه

(١) تأويل مشكل القرآن : ٢٣٢ ــ ٢٣٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشبه وغيرها، وأفاضا في الرد عليها، وذلك في مؤلفاتهم الأخرى، والذي ينظر في كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني، و(المغني في أبواب التوحيد والعدل) للقاضي عبد الجبار يدرك أن هؤلاء لم يغفلوا مثل هذه القضية.

أما الأصبهاني والبيهقي فلربما كانت طبيعة عرضهما لموضوع دلائل النبوة وعدم اتخاذهما طريقة أهل الجدل والكلام أثر في عدم طرقهم لهذه الشبهات إضافة إلى تخصصهم في الحديث النبوي وذكر الأخبار والآثار والاهتمام بالرواية والإسناد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة

بعد أن منَّ الله ــ تبارك وتعالى ــ عليَّ بإتمام هذا البحث، ويسَّر لي طريقه، وبعد هذا التطواف انتهى بي الأمر إلى مقام قطف الثمر، فأقول مستعيناً بمن تعالت قدرته: إن هذا البحث يمكن أن يَخلص بعدد من النتائج، منها:

١ ــ علو بلاغة الأسلوب القرآني وفصاحته، وتقاصر كلام البلغاء والفصحاء عن الوصول إلى ما يقاربه.

٢ ــ هناك صلة وثيقة وعلاقة متينة بين علم البلاغة والعلوم الأخرى، فقد رأينا كيف جاءت تلك القضايا البلاغية في هذا البحث، ضمن كتب هي في أصل وضعها للحديث عن دلائل نبوة محمد ﷺ ، ورأينا كيف عقد العلماء الصلة بين دلائل النبوة التي هي من مباحث السيرة النبوية، وبين مظاهر الإعجاز.

٣ ــ تضافر مختلف العلوم لتحقيق الغايات والأهداف التي يسعى القرآن الكريم إلى بيانها وإيضاحها لجميع البشر.

٤ ــ لقد كان لقدامى العلماء الفضل الأكبر في الكشف عن وجوه الإعجاز المختلفة، وتفصيل القول فيها، و لم يكن لمن جاء بعدهم ــ غالباً ــ إلا الجمع وحسن العرض والبيان.

٥ ــ مع أن هذا البحث لم يُقدِّم إلى البلاغة علماء جُدد، يمكن إضافتهم إلى عِداد البلاغيين، إلا أنه قد أضاف جملة من الملحوظات البلاغية التي يمكن أن تضاف إلى هذا العلم، فقد خرج علماء كتب دلائل النبوة بجملة من الآراء المهمة التي قد تفيد الدارس لهذا العلم الجليل.

٦ ــ كل كتاب من كتب دلائل النبوة هو في الحقيقة دائرة معارف عامة، حيث لم تختص تلك الكتب بالحديث عن معجزة القرآن الكريم وبيان مواطن الجمال فيه، فدراسة أمثال هذه الكتب تُكسب الدارس لها معرفة موسوعية، ولعل هذا هو نهج كثير من العلماء القدامى في كتبهم.

٧ ــ إن الإعجاز البلاغي للقرآن كان مدار البحث بين العلماء الذين تحدثوا عن دلائل نبوة النبي محمد ﷺ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٨ ــ اهتم بعض علماء كتب دلائل النبوة بالشعر ونقده، متخذاً منه وسيلة لإثبات علو بلاغة القرآن الكريم.

٩ ــ توصَّل البحث إلى جمع ما احتوته كتب دلائل النبوة في القرون الخمسة الأولى من قضايا وفنون بلاغية تناثرت في كتب العلماء.

١٠ ــ أجمع علماء كتب دلائل النبوة على أن القرآن الكريم هو معجزة النبي محمد ﷺ ، وأن هذه المعجزة هي أكبر دليل على صدق ما جاء به.

١١ ــ أجمع علماء كتب دلائل النبوة على أن القرآن طالب جميع العرب أن يأتوا بمثله، وهم أهل البلاغة وأرباب الفصاحة، فلم يستطيعوا ذلك ولن يستطيعوه، وهذا دليل على أن القرآن الكريم إنما جاء وفق أساليبهم وطرقهم في الكلام؛ لأنه لا يُعقل أن يُطالب الله البشر بما لا يُدركون، إذ لا فائدة من المطالبة والتحدي حينئذ، حيث لا تقوم به الحجة.

١٢ ــ يُعد التفكير البلاغي معلماً من المعالم التي تَميز بها علماء كتب دلائل النبوة، ولا عجب في ذلك، فأكثرهم من أهل هذا الفنِّ، وبعضهم من مؤسسيه كالجاحظ وابن قتيبة.

١٣ ــ أسهمت كتب دلائل النبوة في تفصيل كثير من القضايا المتعلقة بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم وتحليلها، خاصة ما يتعلق بقضيتي التحدي والمعارضة.

١٤ ــ اعتنى كثير من علماء كتب دلائل النبوة بموضوع الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، حيث قدموه على غيره من الموضوعات، ولا غرو في ذلك فمعجزة القرآن البلاغية هي من أكبر الدلائل على صدق نبوة محمد ﷺ وأوضحها.

١٥ ــ بذل ابن قتيبة جهوداً مميزة في الردِّ على الطاعنين في كتاب الله تعالى.

١٦ ــ أثبت البحث أن الزيدي شخصية علمية فلسفية، فقد تمرَّس بالدراسات الكلامية، فجعلت منه عالماً ناقداً يدافع عن القرآن بالحجة والبرهان.

١٧ ــ للزيدي والماوردي حديث مفصل عن الإعجاز البلاغي، حيث خصَّصا جزءاً كبيراً من كتابيهما لهذا المقصد، كما أن نظرتهما للإعجاز البلاغي جاءت شاملة لكل قضاياه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٨ ــ صاغ علماء كتب دلائل النبوة كتبهم بأسلوب قوي رصين، يكتنفه الغموض في بعض المواضع والقضايا، مما جعلني أُطيل التأمل في كثير منها.

١٩ ــ ظهرت بواكير دراسة ظاهرة الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم في بداية القرون الأولى، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا المنحى وأثره في فهم القرآن الكريم.

كل هذه النتائج وغيرها من الآراء التي تضمنها هذا البحث تُبين جهود علماء كتب دلائل النبوة في دراسة الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

هذا وقد ظهر لي بعد هذه الدراسة مجموعة من التوصيات والاقتراحات، ولعل من أهمها ما يلي:

١ ــ أقترح على الباحثين والدارسين النظرَ في عامة العلوم الشرعية واللغوية والقراءة فيها؛ لإخراج ما في بطونها من قضايا وآراء متفرقة قد تكون إضافة جديدة إلى البلاغة من حيث الموضوع.

٢ ــ التوسع في بيان الإعجاز البلاغي وتوضيحه، فإن كان أعجز علماءنا السابقين فنحن عنه أعجز، لذا أوصي الباحثين بإبراز هذا الوجه والتركيز عليه، وتوجيه طلاب الجامعات لدراسته والبحث فيه.

٣ ــ ينبغي على الباحث في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم أن يَعرف عقائد العلماء والباحثين في هذه القضية، حتى لا ينساق وراء المعتقدات المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة.

٤ ــ دعوة الباحثين في مجال الإعجاز البلاغي إلى محاولة استنباط موضوعات جديدة تُظهر جوانب هذا الإعجاز في القرآن الكريم.

وفي الختام .. أسأل الله ــ تبارك وتعالى ــ أن يجعل هذا الجهدَ خدمة لكتابه العزيز، وأداءً لبعض عظيم حقه، كما أسأله سبحانه أن ينفعني به، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الملاحـــق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا ملحق يحتوي على نسخة من المخطوط الذي وعدت القارئ الكريم في المقدمة بإرفاقه، وهذه النسخة محفوظة في مكتبة الأسد بدمشق، تحت رقم: ٩٥٥، لكنها ناقصة، من ص (١٢٧ إلى ص ١٥٩)، وهذه الصور أدناه تمثل نماذج من صفحاته، وأحسب أني بذلت جهداً في قراءته والاستفادة منه بما يخدم الموضوع ويثري كثيراً من جوانبه.

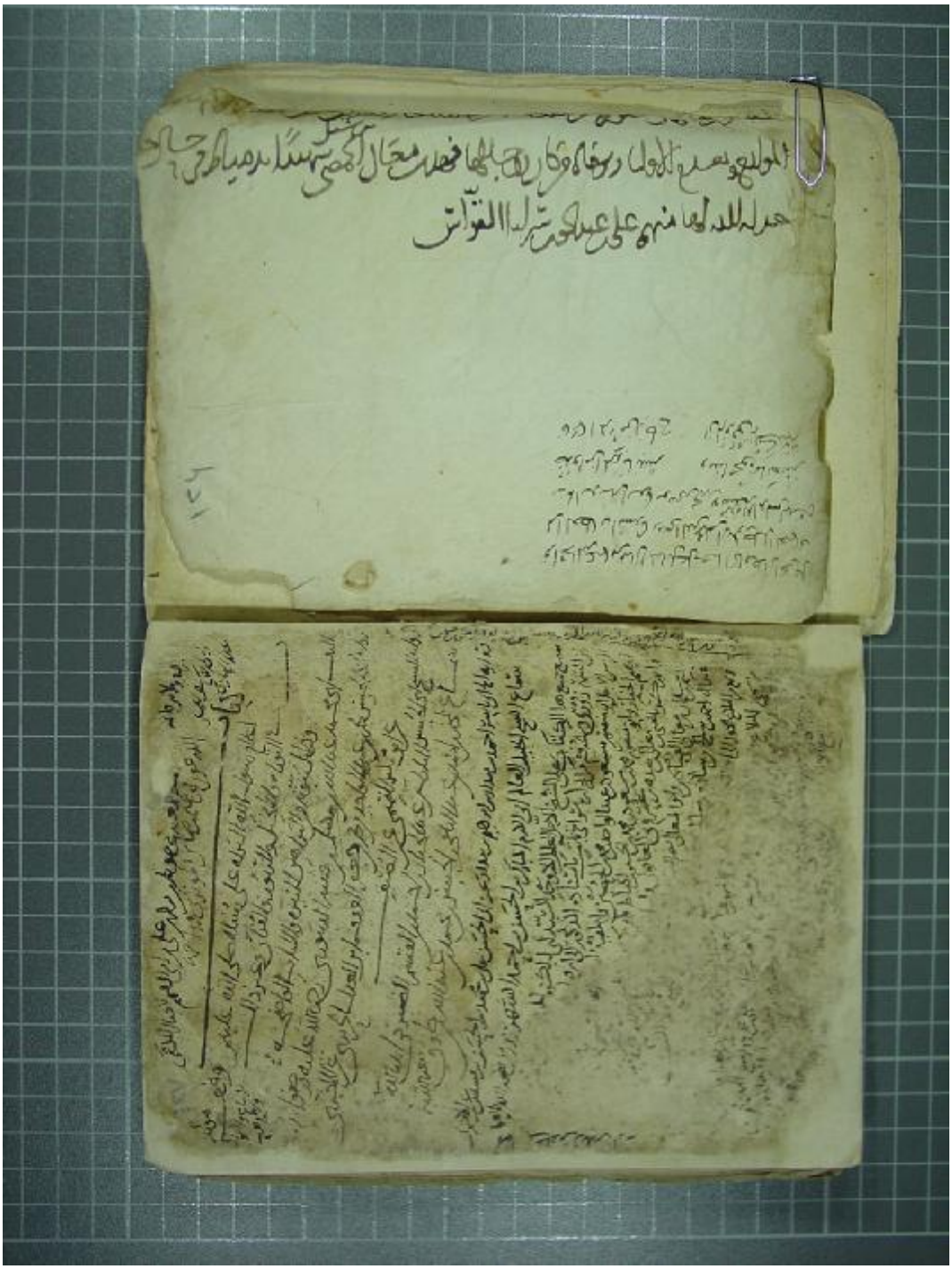

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com